الفصل العاشر

البـــدائل النظرية والأحيـــاء الفينومينولوجى

مقـــــدمة :

عرضنا فى الفصلين السابقين صورتين لحركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع الغربى . ونود هنا أن نقدم عرضا مقتضبا لبعض البدائل النظرية المطروحة فى علم الاجتماع الغربى والتى نشأت من داخله . ففى الوقت الذى اتجه فيه بعض النقاد نحو نقد النظرية أو نقد الواقع الاجتماعى الذى تفسره هذه النظرية ، اتجه البعض الآخر اتجاها مغايرا عندما كرسوا جهودهم لصياغة مجموعة من البدائل النظرية اعتقدوا أنها يمكن أن تحل محل النظريات التقليدية الذائعة الصيت فى المجتمعات الغربية وعلى راسها البارسونزية . ويدعونا هذا الأمر الى أن نعتبرها اتجاهـــات نقدية ، فكل بديل يطرح على بساط البحث يقوم اساسا على نقد النظرية القديمة التى يدعى أنه يمكن أن يحل محلها . فكل البدائل النظرية التى ظهرت فى علم الاجتماع الغربى تتخذ موقفا نقديا من الوضعية أو التفكير الوضعى ومن الامتدادات المعـــاصرة للوضعية كما تتجسد فى أعمال بارسونز وتلاميذه ، وهى بذلك تســـاهم ـــ بأسلوبها الخاص ـــ فى هدم النظرية القديمة وفى تغييرها . وينظر نقاد النظرية ونقاد المجتمع نفس هذه النظرة الى البدائل النظرية المطروحة . فهى تقوى من مجموعة التوترات والصراعات التى يخبرها علم الاجتمـــاع الغربى ، ومن ثم تعجل بتغييره فى اتجاه آخر . وليس أدل على ذلك من كلمات الفن جولدنر حيث كتب يقول : « من الدلائل الأخرى على التعجيل بأزمة الوظيفية ظهور نماذج نظرية شاملة تختلف عن الوظيفية اختـــلافا

جذريا ، فهى نماذج تختلف صياغتها الشكلية وما يرتبط بهـا من افتراضات ومشاعر عن النموذج البارسونزى بصفة خاصـة ، وعن الوظيفيـة بصفة عامة » (١) .

ويكشف هذا النص عن تلك الصـلة التى تربط بين هذه النمـاذج النظرية المطروحة فى علم الاجتماع الغربى وبين الحركة النقدية التى يخبرها هذا العلم . وهكذا يمكن أن نقول أن حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع تسير على ثلاثة مستويـات : النقد السوسيولوجى الذى يعد ارهاصـة لتقديم بديل نظرى راديكالى ، والنقد الاجتماعى الذى يحلل اجزاء الواقع فى ضوء هذا البديل ، ثم البدائل النظرية النابعة من قلب الاتجاه القديم ذاته . ويثار هنا تساؤل على قدر كبير من الأهمية : ماذا نقصد هنـا بالبدائل النظرية ؟ هل هى كل البدائل المطروحة بما فى ذلك البدائل التى تعد صورة معدلة من الماركسية ؟ الحقيقة أننا نستبعد هنا كل الصـور المعـدلة من الماركسية وذلك لسببين:

الأول : ان العرض السابق قد لمس بعض هذه الصور كما تبدى ذلك فى أعمال رايت ميلز والفن جولدنر . وهى أعمال تعد أساسا لبديل نظرى ، يمكن أن نطلق عليه البديل الراديكالى او علم الاجتماع الراديكالى .

الثانى : أننا نود هنا أن نركز على البـدائل التى نبعت من داخل الاتجاهات التقليدية ذاتهـا ، ومن خلال تلاميـذ لغلاة المحافظين فى علم الاجتماع . فسوف يسمح لنا هذا العرض بتوضيح مدى اتفاق هذه البدائل او اختلافها مع التيـار القديم ، والاسهام النظرى والمنهجى الذى قدمته .

ويجد المستعرض لهذه البدائل أن لها مجموعة من السمات العامة ،

---

(١) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 378

ويجد انها قد استقت من روافد واحدة الى درجة اننا نستطيع أن نضمها سويا فى اتجاه واحد ، أو نستطيع — بالأحرى — أن نكتشف داخلهـا اتجاها عاما له مجموعة من الخصائص التى تسم هذه البدائل جميعـا . فجميع هذه البدائل تتخذ موقفا نقديا من الوضعية وصورها المحدثة : فهى تعارض نزعة التجريد ، وتعارض الاتجاه الكمى الاحصائى ، وتتجه نحـو دراسة الحياة اليومية ، ونحو دراسة علاقات التفاعل بين الأفراد من وجهة نظر الأفراد انفسهم وتقييمهم للموقف الاجتماعى الذى يتم داخله التفاعل . والواضح هنا أن هذه الاتجاهات تحاول احيـاء التراث الفينومينولوجى بشقيه الفلسفى والاجتماعى ، وكذلك تراث التفاعل الرمزى المرتبط بأعمال توماس كولى Cooly وهربرت ميد Herbert Mead . ويمثل هذا الاحيـاء أحد ردود الفعل تجاه سيطرة علم الاجتماع المرتبط بمشكلة النظام والذى ناقشناه فى القسـم الأول من هـذا الـكتاب . ويذهب موريس روش Maurice Roche الى أن احياء الفينومينولوجيا فى علم الاجتماع — وهو احياء اصبح يتمتع بتأثير متزايد فى السنوات الأخيرة — يجسد الملامح الانسانية التى كانت مغمورة ومكبوتة فى علم الاجتمـاع لوقت طويل ، وذلك بسبب سيطرة الوضعية والبنائية . فالأولى انتجت « النزعة الأمبيريقية المجتزأة » التى تسخر بحوثها فى خدمة أجهزة الحكومة والشركات الكبرى ، أما الثانية فقد انتجت النظرية الكبرى التى تدعى تقديم نظرية عالمية(٢) . وفى كلا الحالين أهمل الانسان الذى حاولت النزعة الانسانية فى الفلسفة أن تجعله موضوعها الأساسى .

وهنا تكمن أهمية استعراض هذه البدائل النظرية التى أحيت هـذا التراث الانسانى فى الفلسفة فى مقابل الوضعية والبنائية ، من أجل اكتشاف

---

(٢) Maurice Roche, Phenomenology, Language and the Social Sciences, Routledge and Kegan Paul, London, 1973 p. 315

والملاحظ أن نفس هذين الموضوعين — الامبريقية المتجزأة والنظرية الكبرى — هما نفس الموضوعين اللذين انتقدهما رايت ميلز كما لاحظنا فى مكان سابق .

مدى اختلاف هذه الاتجاهات الجديدة عن الأطر القديمة التى تناقضت معها . فالسؤال الكبير الذى يطرح على بساط البحث الآن هو الى أى مدى استطاعت هذه الاتجاهات النظرية الحديثة ، أو حتى الاتجاهات النقدية التى عرضناها فى الفصول السابقة ، أن تقوض دعائم النظرية القديمة ؟ والى اى مدى استطاعت هذه الاتجاهات النظرية الحديثة أن تحيى الاهتمام بالانسان ومصيره ووعيه وتحريره أولا وقبل كل شيء ؟ وهنا تكمن اهمية هذا الفصل الذى نعقده عن هذه البدائل النظرية .

سنحاول فى البداية أن نستعرض الأحوال البنائية والفكرية لهذه الاتجاهات ، ثم نستعرض بعد ذلك أهم هذه الاتجاهات النظرية التى نحصرها فى ثلاثة اتجاهات رئيسية هى احياء الفينومينولوجيا ، والاثنوميثودولوجى ، ثم احياء التفاعلية الرمزية . وفى النهاية نتحدث عن مدى اسهام هذه البدائل النظرية فى اثراء النظرية السوسيولوجية ومدى فشلها فى تقويض دعائم النظرية القديمة . وبناء على ذلك يتكون هذا الفصل من العناصر الآتية :

أولا : الجذور البنائية والفكرية للبدائل النظرية .
ثانيا : احياء الاتجاه الفينومينولوجى .
ثالثا : الاثنوميثودولوجى : منهجية الجماعة .
رابعا : احياء التفاعلية الرمزية .
خامسا : البدائل النظرية بين الاسهام النظرى والمنهجى .

أولا : الجذور البنائية والفكرية :

لاشك فى أن مجموعة التحولات الفكرية والبنائية التى اجتاحت المجتمعات الغربية فى الستينات ، والتى كونت تحديا بنائيا وفكريا امام الاتجاهات الكلاسيكية هى التى فتحت الطريق امام امكانية قيام بدائل نظرية يمكن أن تحل محلها نظريات هذا العلم الكلاسيكية . وتنحصر دلالة هذه التحولات بالنسبة للنظريات التى ناقشناها هنا فى جانبين رئيسيين :

الأول : انها دفعت الى التشكيك فى النظريات القديمة واظهرت الحاجة الى نظرية تحتل فيها حرية الفرد وافعاله القصدية أو اللاقصدية مكانا بارزا ومن ثم يمكن ان تستوعب الدعوة نحو التغيير التى رفعها جيل الستينيات فى أوربا وامريكا . واذا عرفنا — كما سنرى بعد قليل — أن التراث الفلسفى للفينومينولوجيا والتفاعلية الرمزية قد اهتم بالأفعال القصدية ، والوعى ، والذات الفاعلة ، سندرك لماذا اتجه علم الاجتماع نحو احياء الفينومينولوجيا ، والتفاعلية الرمزية ، وسندرك ايضا مدى ارتباط هذا الاحياء بالتحولات البنائية التى ظهرت فى الستينات .

الثانى : أن الفلسفة — وخاصة الفلسفة الوجودية — قد لاقت انتشارا بين جماعات الشباب ودعاة التغير ، ولقد ركزت هذه الفلسفة من خلال أعمال كيركجارو وسارتر — على الخبرة الذاتية للفرد وصورته على انه انسان له وجوده الخاص وتاريخيته الخاصة فى علاقاته بعالم الأشياء أو بالآخرين . كما اهتم الشباب ايضا بأدب العبث كما تمثله اعمال البير كامى Camus وبيكت Beekett وسارتر ايضا . وينظر هذا الأدب الى الانسان فى المجتمع على انه عبث ، فهو يعمل داخل بيئة تخبر تناقضا مستمرا بحيث لا يستطيع ان يتوصل من خلالها الى هدف ذى معنى(٣) . واذا كان الأمر كذلك ، فانه من الطبيعى أن يلاقى اى احياء للفلسفة الفينومينولوجية ، أو الفلسفة التى تركز على جوهر الانسان بصفة عامة ، واعادة صياغتها فى شكل اجتماعى ، قبولا واسعا بين الشباب .

هذه اشارة عابرة الى ارتباط البدائل النظرية فى علم الاجتماع بالتحولات البنائية فى المجتمعات الغربية فى العقد الماضى ، ولنتحول الآن الى الأصول الفكرية التى استمدت منها هذه البدائل اساسها النظرى والمنهجى .

---

(٣) Glenn A. Good win, « On Transcending The Absurd An Inquiry in the Sociology of Meaning » A.J.S. Vol. 76, No. 5, 1971, p. 832.

ترجع هـذه الأصول الى فلسفـة الظواهر Phenomenology بالصورة التى قدمها بها ادموند هوسرل(٤) . ولقد قامت فلسفة هوسرل فى أحد جوانبها على مناقشة الفرض التجريبى — الذى تعتمد عليه العلوم الطبيعية — والذى يفصل بين عالم المادة الخارجى وبين الذات التجريبية. ويطلق هوسرل على ذلك الاتجاه الذى يفصل بين الذات والموضوع أو بين عالم الشعور وعالم المـادة ، يطلق عليه الاتجاه الطبيعى . ان هوسرل لايريد انكار وجود هذا الاتجاه الطبيعى ، أو العالم المادى ، ولكنه أهـاب بالفلاسفة الا يفترضوا وجودهما لأنه يريد أن يبدأ الفيلسوف من بدايات مطلقة لا تنطوى على اى فروض . وهنـا يكون شعـور الفيلسوف الباحث هو الحكم النهائى ، فالظواهر هى الشعور الخالص أو أفعالنا العقلية أنها خبرات قصدية موجهة للأفعال العقلية(٥) . ولاشك أن اعتبار الشعور أو الخبرات القصدية محكا لرؤية العالم ودراسة ظواهره يناقض قضية العلماء الطبيعيين التى تفصل بين العالم الخارجى والذات التجريبية . فرغم أن الفيلسوف لا يبدأ بأى أفكار قبلية مسبقة ، الا أنه يصف الظواهر كما تبدو فى ادراكه وشعوره ، أو بعبارة أخرى يصـف « ماهيات » الظواهر من خلال ادراكه وشعوره ، أو خبراته القصدية ، بل انه يتعدى مرحلة الوصف الى مرحلة التفسير . « فاحدى الدعائم التى يقوم عليها المنهج الفينومينولوجى

---

(٤) ادموند هوسرل (١٨٥٩ — ١٩٣٨) هو أحـد الفلاسفة الالمـان المعاصرين الذين أحسـوا بالحاجة الى اقامة الفلسفة علمـا ، له موضوعاته المحددة ومنهجه المحدد ، وقد تتلمذ هوسرل على فرانز برنتانو (١٨٣٨ — ١٩١٧) ، مؤسس النزعة السيكولوجية التى تقول بأن علم النفس هو العلم الاساسى الذى تقوم عليه جميع العلوم الأخرى بما فيها المنطق ونظرية المعرفة والأخلاق . كما تتلمذ أيضـا على كارل شتـوف (١٨٤٨ — ١٩٣٦) الذى أقام المنطق ونظرية المعرفة على علم النفس دون أن يتورط فى النزعة السيكولوجية . انظر : عبد الغفار مكاوى ، **فلسفة الظاهريات : ادموند هوسرل** ، محاضرات على الآلة الناسخة ، ص ص ١ — ٨ . ومحمود زيدان ، **مناهج البحث الفلسفى** ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٤ ، ص ٦٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ص ٦٦ — ٦٩ .

هى التماس القضايا اليقينية فى الشعور وأفكاره ، أو الذات وخبراتها من ادراك ووجدان وتخيل ورغبة وتذكر وشعور واعتقاد وحكم »(٦) . ويترتب على ذلك أن يصبح العالم الخارجى غير منفصل عن شعورى وادراكى كشخص يعيش فيه ، وليس للمعرفة اى معنى ان لم تكن مستقاة من تصوراتى وأفكارى وخبراتى مع عالم الظواهر . ولا شك أن هذه القضية تناقض القضية الوضعية التى طورها دوركايم والتى تفصل بين ذات الباحث وموضوعات دراسته ، عندما قرر ضرورة دراسة الظواهر « كأشياء » منفصلة عن ذات الباحث . فكل فرد لا بد أن يكون له موقف او اتجاه طبيعى تجاه العالم يعمل بمثابة المصفاة او المنظار المخروطى الذى ينقى مدركاته ويعزل عنها الشوائب والشكوك فى مجال حياته اليومية ، لدرجة انه مع مرور الوقت يصبح لدى هذا الشخص نظرية ذاتية خاصة به يستعين بها كدعامة فى مجابهة العالم (٧) . والنظرية التى يصوغها الباحث ما هى الا جماع نظريات الأفراد عن العالم التى يكونها من خلال عمليات التفاعل . وتلك هى القضية الأساسية التى يقوم عليها علم الاجتماع الفينومينولوجى .

وانطلاقا من هذه القضية جاءت اعمال الفرد شوتز (٨) A. Schutz الذى يعد الرافد الفكرى الثانى — بعد هوسرل — الذى اشتقت منه البدائل الفينومينولوجية المعاصرة . بدأ الفرد شوتز من نقد علم الاجتماع الصورى عند ماكس فيبر ، حيث وضع تحفظات كبيرة على تحليل ماكس فيبر الذى يذهب الى أن علم الاجتماع هو العلم الذى يتوصل الى الفهم التأويلى للفعل الاجتماعى من أجل التوصل الى تفسير سببى لمجراه وآثاره ، والذى يذهب أيضا الى أن الفعل يكتسب صفة الاجتماعية من خلال المعنى الذاتى الذى يضفيه عليه الأفراد ، فهو يأخذ فى اعتباره سلوك الآخرين الذى

---

(٦) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٧) سعد الدين ابراهيم ، المنهجية الواقعية : الاثنوميثودولوجيا : محاضرات على الآلة الناسخة القيت على طلبة الماجستير بكلية الآداب عام ١٩٧٦ ، ص ٢ .

يؤثر بدوره فى مجراه . ان هذا التحليل النيبرى لا يتعمق كثيرا — حسبما يذهب شوتز — ليلمس اسس المعرفة الاجتماعية . فالمعنى الذاتى لا يمثل عنصرا اساسيا ونهائيا للظواهر الاجتماعية كما ذهب فيبر ، ولكنه مجرد مؤشر على مجال أكثر تعقيدا يحتاج الى مزيد من الدراسة والتقصى . فضلا عن أن فيبر لم يميز بين « الفعل المكتمل » — Completed act وغير المكتمل action in progress ، او بين المعنى الذى يضيفه منتج الموضوع الثقافى عليه ومعناه الموضوعى ، فلقد تصور فيبر تجانسا فى الفن ، أما شوتز فانه كان ينظر الى المعنى على انه نسق معقد من المنظورات (٩) .

ومن هنا بدأت فينومينولوجية شوتز . فالظواهر الاجتماعية — فى نظره — تتكون من المفاهيم العادية Common-sence concepts التى يكونها الأفراد عن العالم وعن بعضهم البعض خلال حياتهم اليومية . وعندما يصوغ الباحث صياغاته الفكرية فانه يقيمها فى ضوء الصياغات التى يكونها الانسان الذى يعيش حياته العادية وسط قرنائه . ومن ثم فان الصياغات الفكرية التى يقدمها علماء الاجتماع ما هى الا صياغات من درجة ثانية ، وهى صياغات عامة لصياغات فردية كثيرة يكونها الفاعلون على مسرح الحياة الاجتماعية (١٠) واعتقد شوتز أن هذه الرؤية الفينومينولوجية يمكن أن تحل الكثير من مشكلات العلوم الاجتماعية : من ذلك مثلا مشكلة استخدام منهج العلوم الطبيعية . فهذه المناهج تؤدى الى معرفة ثابتة عن

---

(٨) الفرد شوتز عالم اجتماع ألمانى تتلمذ على ادموند هوسرل ترك المانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ . وبدأ التدريس فى المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية بنيويورك عام ١٩٤٣ .

(٩) Peter Lassman, «Phenomenological perspectives in Sociology», in : J. Rex (ed) **Approaches to Sociology**, Routledge and Kegan Paul, London and Boston, 1974, p. 126.

(١٠) Ibid., p. 127

الواقع الاجتماعى ولكنها معرفة غير متسقة مع بعضها البعض ، لانها سوف لا تخبرنا بأى شىء عن الواقع الاجتماعى كما يخبره الأفراد فى الحيـــاة اليومية . فالمهمة الأساسية المنوطة بالعلوم الاجتماعية هى الكشف عن المبادىء العامة التى ينظم فى ضوئها الانسان خبراته فى حياته اليومية ، وهى مهمة لا يمكن تحقيقها من خلال منهج العلوم الطبيعية الذى يفصل بين الذات التجريبية وبين العالم الخارجى ، ومن المشكلات التى تحلها الرؤية الفينومينولوجية مشكلة الموضوعية . فالصياغات الفـكرية التى يقدمهـا الباحث هى صياغات موضوعية ، لانها تتخذ شكل الأبنية المثالية أو الأكثر شيوعا ، وهى أبنية تختلف بالقطع عن الأبنية الجزئية التى يكونها الفاعلون الأفراد ، صحيح أن التأويل العادى للحياة اليومية يؤثر على الموقف الشخصى للباحث ، ولكن الباحث ـــ من خلال أعداد نفسه ليكون عالما ـــ يستطيع أن يستبدل مواقفه الشخصية بما يمكن أن نسميه الموقف العلمى ، بحيث تجىء صياغاته النظرية متسقة اتساقا منطقيا بمعنى أنها يجب أن تشتمل على الصـــدق الموضوعى فى عناصرها الداخلية ، وبها قـــدر من الكفاءة الامبيريقية ، بمعنى أن تتوافق عناصرها مع الأبنية الفكرية فى الحيـــاة اليوميـــة (١١) .

ولقد تبلور من خلال أعمال شوتز اتجاه جديد فى علم الاجتماع يمكن أن نطلق عليـــه « علم الاجتماع الفينومينولوجى » ، يعارض الكثير من القضايا التى يقوم عليها علم الاجتماع فى صورته الوضعية التى امتدت من

---

(١١) A. Schutz, «Concept and Theory formation in the Social Sciences», **Journal of Philosophy**, Vol. 51, 1954, pp. 257-73.

يكشف هذا الرأى فى الموضوعية عن أوجه شبه بينه وبين رأى الفن جولدنر . ففكرة الفصل بين الواقع الشخصى للباحث وبين عمله العملى من خلال وعيه الذاتى بالعلاقة المعقدة بينهما ، وهى الفكرة التى تطرحها نظـــرية « علم الاجتماع الانعكاسى » تقترب من رأى شوتز فى الموضوعية النابع من مذهبه الفينومينولوجى .

كونت حتى بارسونز . ويقوم علم الاجتماع الفينومينولوجى على مجموعة من القضايا يمكن حصرها فيما يلى : (١٢) .

١ ــ يكمن الأساس الفلسفى لعلم الاجتماع الفينومينولوجى فى فلسفة الظـــواهر التى طورها هوسرل ، وهى الفلسفة التى أعاد صياغتها الفرد شوتز عندما أولى اهتماما للذاتية الداخلية Intersubjectivity للاتجاه الطبيعى مما جعله مفيدا فى دراسة الظواهر الاجتماعية .

٢ ــ ومادة التحليل الفينومينولوجى هى خبرة الحيـــاة اليومية ، وعالم الحياة المعطى كما يتجسد من خلال تركيبات من المعـــرفة التى يتم تكوينها ونقلها اجتماعيا . فعلم الاجتماع الفينومينولوجى لا يقتصر فى دراسته على مضمون هذه التركيبات ، ولكن مجال اهتمامه يمتد الى العمليات التى من خلالها تتكون ، وتنقل ، وتستقبل مثل هـــذه التركيبات ؛ ودور الأبنية التنظيمية والنظامية فى تشكيل مثل هـــذه العمليات .

٣ ــ ينظر علم الاجتماع الفينومينولوجى للانســـان على انه يمتلك عنصر المبادأة فى الفعل الاجتماعى . ان الفاعل يقف فى علاقة جدلية مع الواقع ؛ فهو يعد خالق هذا الواقع ونتاجا له فى ذات الوقت .

٤ ــ يترتب على ذلك أن يرتكز علم الاجتماع الفينومينولوجى على مبادىء النزعـــة الفرديـــة الميثودولوجية والاتجـــاه النسبى Relativation فالواقع والصدق والرشد يتحدد فى ضوء المعانى التى يضفيها عليها الفرد فى مواقفه وأفعاله . ويترتب على ذلك أن تعتمـــد أصـــدق التفسيرات السوسيولوجية على كفاءة هذه التفسيرات على مستوى التأويل الذاتى لخبرة الفرد العادية .

---

(١٢) E. Best, «New Directions in Sociological Thought. A Critical Note on Phenomenological Sociology and its Antecedents», B.J.S. Vol. XXVI No. 2, June, 1975.

ولتحقق هذا الصدق فان علم الاجتماع الفينومينولوجى لا يعتقد فى صحة الافتراضات السببية المرتبطة بصياغة الفروض صياغة اسمية ــ استنباطية والتى تميز العلوم الطبيعية ، ولكنه يعتمد على تصور الحياة الاجتماعية من خلال تصورات الأفراد وأفكارهم عنها .

والمتأمل لقضايا علم الاجتماع الفينومينولوجى يستطيع أن يستنتج حقيقتين : الأولى : انه يعتبر تيارا نقديا لعلم الاجتماع الكلاسيكى أو المحافظ على اساس أن علم الاجتماع فى صورته المحافظة المرتبطة بمشكلة النظام قد سلخ نفسه من الواقع وافترض فجوة بين الباحث وموضوع دراسته عندما أكد ضرورة النظر الى ظواهر هذا الواقع على انها اشياء . والثانية انه يعتبر امتدادا لبعض القضايا التى طورها ماكس فيبر . حقيقة أن شوتز قد انتقد صورة فيبر ، ولكن فيبر استطاع أن يبرز ــ فى وقت مبكر ــ بعض القضايا الهامة التى أفاد منها الفينومينولوجيون مثل الاهتمام بالمعنى الذاتى لأفعال الأفراد ، وصياغة الأنماط المثالية . وهذا هو الذى دعانا الى أن نتحدث عن « تميز تراث ماكس فيبر » أثناء عرضنا لاسهامات علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر . فرغم انتمائه الى نفس العصر الذى تبلور فيه الارتباط بين علم الاجتماع والاتجاه المحافظ ، الا أنه استطاع أن يحيد عن الخط الذى سارت فيه الوضعية عندما رفض فهم العلوم الطبيعية ، وعندما قدم منهج « الفهم الذاتى » للفعل ذى المعنى .

ونحن نؤكد على تلك الصلة بين فيبر وشوتز لنبرهن على قضية اخرى مؤداها أن علم الاجتماع الفينومينولوجى كان امتدادا لتيار معين داخل علم الاجتماع الغربى يناوىء الوضعية ، ولكنه كان تيارا خافتا وضعيفا أمام طغيان وسيطرة البارسونزية . وهذا هو السبب الذى جعل البدائل النظرية المعاصرة داخل علم الاجتماع الغربى تتخذ اتجاها فينومينولوجيا . فهى من ناحية تريد الا تتخذ مسارا وضعيا تحاكى من خلاله العلوم الطبيعية فى التعامل مع مادة دراستها ، وهى من ناحية ثانية تريد أن تتفادى كل المزالق التى وقع فيها علم الاجتماع الغربى كما يتجسد فى صورته البارسونزية وعلى رأسها النزعة نحو التجريد والصورية ، والنزعة نحو التكميم أو

الصورية الرياضية ، كما تريد من ناحيـــة ثالثة أن تكون أكثر التصـــاقا بالجماهير وأكثر وعيا بمشكلاتها فى محاولة لتخفيف جانب من المعـــاناة والاستغلال الذى تعيشه هذه الجماهير . وفى أى من هذه الأحوال لابد لأى بديل نظرى مطروح أن يبحث عن جذور فكرية تختلف عن تلك الجذور التى استمد منها بارسونز وزملاؤه نظرياتهم ، ووجدت هذه النظريات ضالتها فى الفلسفة الفينومينولوجية وفى علم الاجتماع الفينومينولوجى بالصورة التى قدمها الفرد شوتز .

غير أن هناك رافدا آخر لقى طريقه الى الاحياء فى تراث علم الاجتماع المعاصر ،وأعنى تراث التفاعلية الرمزية الذى نبع من أعمال تشارلز كولى Cooley ، وهربرت ميد ، ظهر فى أعمال هذين العالمين موضوعان أساسيان وضعا أساسا لتراث متميز فى علم الاجتماع يختلف عن تراث الوضـــعية بصورها المتعددة ، ويقترب من تراث المدرسة الفينومينولوجية ، بل انه يشترك معه فى كثير من قضاياه . وينحصر هذان الموضوعان في فـــكرة الذات الفاعلة ، والرموزSymbols كوعاء يجمع المعانى التى يضفيها الفاعلون على افعالهم ويسهل عملية التفاعل . وقد ظهر الموضوع الأول فى أعمال كولى ، أما أعمال هربرت ميد فقد احتوت فهما معينا للعلاقة بين الموضوعين .

تنبثق فكرة كولى عن الذات الاجتماعية من فهم معين للعلاقة بين الفرد والمجتمع فالعلاقة بين المجتمع والفرد علاقة عضوية بمعنى أن « الفرد ليس منفصلا عن الكل الانسانى ، ولكنه عضو يعيش فيه ، وهو يشتق حياته من هذا الكل ، ومن خلال الارسال الاجتماعى والوراثى » (١٣) . غير أن هذه العلاقة بين الفرد والمجتمع لا تنبع من فهم دوركايمى يقـــوم على سيطرة المجتمع على الفرد سيطرة كاملة ، فالعلاقة بينهما ـــ فى نظر

---

(١٣) السيد محمد الحسينى ومحمد على محمد ، تشارلز كولى ، **المجـــلة الاجتماعية القومية** ، المجلد الرابع ، العدد الأول ١٩٦٧ ، ص ١٢٥ .

كولى ــ تبدو وكأنها علاقة متوازنة : « فالمجتمع يصنع الانسان ، والانسان بدوره يصنع المجتمع » (١٤) . بل ان دراسة المجتمع تبدأ من الفرد حيث كتب يقول : « ففى داخل الأفراد ــ وليس فى نطاق اى فرد آخر نستطيع ان نعثر على النظم » (١٥) . ومن هنا بدأ اهتمام كولى بالذات Self ، (أو الأنا ego) . والذات عنده هى « ما يشار اليه فى لغة الحياة اليومية بضمير المتكلم المفرد « انا » فى صيغة الفاعل والمفعول « وياء » « الملكية » ، وهى وجدان غريزى يهدف الى « توحيد ضروب النشاط الصادرة عن الفرد ودفعها الى الأمام » (١٦) . والذات بهذه الصياغة لا تعد ذاتا فردية ، وانما هى ذات تنمو داخل المجتمع ، ونموها هذا يجعل فكرة الذات عبارة عن شعور بما يميز حياة الفرد عن حياة الآخرين ، كما ان الذات فى حد ذاتها تتضمن الاشارة الى الآخرين ، فالشعور بالذات (بالأنا) يتضمن شعورا بذوات الآخرين ، فكل شىء يربطه بالذات له دلالة اجتماعية(١٧) . وهذا هو السبب فى أن كولى يركز على ما أسماه بالذات المنعكسة Reflected Self التى تتضمن تصور الفرد لنفسه ازاء الآخرين وتصور أحكام الآخرين عنه ، فضلا عن شعوره الذاتى(١٨) . ويعنى ذلك ان الذات هى أساس علاقات التفاعل بين الأفراد وهى جوهر التنظيم الاجتماعى ، بل ان فهم هذا التنظيم الاجتماعى لا يمكن أن يدرس الا من خلال الفهم الداخلى (التعاطفى) الذى يقوم على الملاحظة والحدس(١٩) . ويتضح هنا أن كولى يسعى الى دراسة موقف الفرد ليس فقط فى علاقته بالتنظيم الاجتماعى وانما فى قدرته على توجه هذا التنظيم وجهة معينة ، كما أن أسلوب هذه الدراسة لا يتصور انفصالا بين الفرد والباحث ، وانما

---

(١٤) نقلا عن المرجع السابق ص ١٢٦ .
(١٥) نقلا عن تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .
(١٦) مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨١ .
(١٧) المرجع السابق ، ص ص ١٨١ ــ ١٨٢ .
(١٨) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .
(١٩) انظر : تيماشيف ، المرجع السابق ، ص ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ .

يجب على الباحث أن يتعمق من خلال الحدس خلف ذوات الأفراد . وفى كلا الحالين نجد اختلافا عن تراث الوضعية ، واساسا لاتجاه جديد قريب من التيار الفينومينولوجى .

ولقد اتضحت اسس هذا الاتجاه بشكل اكثر تبلورا فى اعمال جورج هربرت ميد George Herbert Mead اذ يحتل مفهوم الذات عنده اهمية محورية فقد نظر الى الانسان « بوصفة كائنا عضويا لـه ذات . وملكية الانسان للذات تحوله الى فاعل فريد وتشكل علاقته بالعالم ، وتعطى لأفعاله طابعا مميزا (٢٠) . فمن خلال الذات يكون الفرد صورة عن نفسه وعن الآخرين وهو يتعامل مع نفسه كموضوع مثلما يتعامل مع الآخرين كموضوعات ، والذات هنا ليست بناء مستقلا له خصائص بنائية . فالذات ليست الأنا ، وليست تنظيما للحاجات والدوافع أو الاتجاهات او استدماجا للمعايير والقيم . الذات هنا تفهم بمثابة عملية انعكاسية Reflexive بين ذات الفرد والعالم الخارجى . وبمقتضى وجود الذات يعتبر الانسان فى موقف متناقض مع العالم وليس نتاجا له ، وعليه أن يتعامل مع الواقع ويتعرف عليه وأن يبنى لنفسه نمطا سلوكيا معينا بدلا من مجرد الاستجابة للواقع فقط ، فالفاعل هنا ينظم الواقع بطريقته الخاصة لكى يتوصل الى هذا النمط السلوكى . وهو فى هذه الحالة لابد ان يحدد رغباته واهدافه ويراجع ذاته دائما فى مقابل الواقع . والسلوك هنا هو سلوك موجه من خلال الذات ، والفرق بين الأفراد يظهر فى اختلافهم فى تنظيم الواقع والنجاح فى تكوين خط سلوكى(٢١) .

ولكن ما الذى يكسب السلوك صفة الاجتماعية ؟ يفرق ميد بين مرحلتين فى نمو الذات ، تتكون الذات فى المرحلة الأولى من خلال تنظيم مجموعة خاصة من الاتجاهات عن الآخرين وعن اتجاهاتهم نحوها . وفى المرحلة الثانية

---

(٢٠) Herbert Blumer, «Sociological Implications of the Tought of George Herbert Mead, in W. Wallace, op. cit., p. 234.

(٢١) Blumer, op. cit, pp. 234-236.

والمتقدمة من نمو الذات يتجاوز الفرد مرحلة الاتجاهات الفردية ويطور ضربا جديدا من الاتجاهات المرتبطة بالجماعة ككل ، التى يتبع لها الفرد . ومن ثم فان الذات تبلغ أوج تطورها عندما تنظم الاتجاهات الفردية فى اتجاهات جماعية ، أو أن يصبح انعكاسا للسلوك الجمعى أو الاجتماعى الذى ينخرط فيه كل من الفرد والآخرين(٢٢) . والذات هنا تبدو اجتماعية بالضرورة ، وتختفى الصراعات بينها وبين العالم ، وان كان هذا الاختلاف يختلف باختلاف الأفراد .

والرموز هى التى تحقق الرابطة الكاملة بين ذوات الأفراد من حيث انها هى التى تكسب عناصر التفاعل ، ومن ثم التفاعل نفسه معنى معينا . ويفرق ميد بين نوعين من التفاعل : التفاعل غير الرمزى ، والتفاعل الرمزى . الأول هو مجرد الاستجابة لأفعال الآخرين دون اضفاء اى معنى عليها ، (دون فهمها) ، أما الثانى فانه يشير الى فهم طرفى التفاعل للمعانى الكامنة خلف ضروب الفعل والسلوك(٢٣) . فالرموز او اللغة اذن هى الوسيلة التى من خلالها يفهم الفرد العالم المحيط ، ويضفى عليه معان معينة ، وبالتالى فهى وسيلته الى الارتقاء بذاته الى أرقى مراحل نموها ، وهى فى النهاية ، الوسيلة التى تحقق الترابط البشرى .

والفكرة الأساسية وراء هذه الرؤية لعلاقة الذات بالعالم ودور الرمزى مؤداها أن دراسة المجتمع يجب أن لا تنفصل عن المجتمع نفسه ،

---

(٢٢) G. H. Mead, «Play, the Game and the Generalized other», in W. Wallace, op. cit., p. 231

ومن الجدير بالاشارة ان هاتين المرحلتين تقرمان على تفرقة ميد بين الآخر Other والآخر المعمم Generalized Other الذى هو الجماعة التى ينتمى اليها الفرد . فنمو الذات عند الفرد يمكنه من تجاوز النظرة الفردية الى ادراك الجماعة ككل ، وهنا يبدأ التعايش بين الذات والعالم .

(٢٣) Blumer, op. cit., pp. 236-7.

بل ان دراسة المجتمع يجب أن تتم من وجهة نظر الأفراد أنفسهم دون أن تكون شيئا مفروضا عليهم من الخارج ويعد ذلك موضوعا أساسيا فى اعادة الاحياء الفينومينولوجى فى علم الاجتماع . هذا فضلا عن أن أفكار كولى وهربرت ميد تقف على نقيض — مثلها مثل أفكار شوتز — من التراث الوضعى الذى يفصل فصلا تعسفيا بين الذات والموضوع ، ويهتم بالتصورات الخارجية دون التصورات الداخلية للأفراد . ومن خلال استعراضنا لمظاهر احياء هذه الأفكار المبكرة ، نستطيع أن نكتشف الى أى مدى استطاعت هذه الأفكار ان تخلق تيارا نقديا حديثا لعلم الاجتماع بصورته الوضعية — الوظيفية ، وان كنا سنبحث أيضا عما اذا كانت هذه الاتجاهات قد نجحت فعلا فى الانفصال عن هذا التراث .

ثانيا — احياء الاتجاه الفينومينولوجى :

رغم أن الاتجاهات التى نعرضها فى هذا الفصل ، تمثل — بشكل أو بآخر — احياء للتراث الفينومينولوجى ، الا أن هذا الاحياء قد ظهر فى صورته الأولى متمثلا فى احياء فكر الفرد شوتز وتطويره دون اعطائه اسما جديدا ، الأمر الذى يجعلنا نعتبره امتدادا للاتجاه الفينومينولوجى القديم الذى عرضنا لجانب منه فى الفقرة السابقة . وربما يكون بيتر بيرجر Peter Berger وتوماس لكمان Thoomas Luckmann هما اظهر من يعبر عن هذا الاحياء الفينومينولوجى(٢٤) .

بدأ بيرجر ولكمان من فكرة شوتز عن الذاتية الداخلية Intersubjectivity؛ فالعلاقات الاجتماعية الأولية — كما تنعكس فى الذاتية الداخلية للأفراد — هى أساس الواقع الاجتماعى ، تلك الذاتية

---

(٢٤) قدم بيتر بيرجر وتوماس لكمان وجهة نظرهما فى الاسهامين التاليين :
P. Berger and Thomas Luckmann, «Sociology of Religion and the Sociology of Knowledge», Sociology and Social Research, Vol. 47, 1963; The Social Construction of Reality 1967 Penguin Books, 1971.

التى تكتسب طابعا عاما من خلال اللغة . فاذا تصورنا أن أى تجمع بشرى يتكون من معطيات خارجة عن نطاق الأفراد ، ثم تصور الأفراد عن هذه المعطيات الخارجية واكسابها معان معينة ، فان المجتمع فى هذه الحالة يتكون من تفاعل جدلى بين المعطيات الموضوعية والمعانى الذاتية ، بمعنى تفاعل بين الخبرات المكتسبة من الخارج ، والخبرات الموجودة فى وعى الفرد ذاته . الواقع هنا ينعكس فى وعى الأفراد ، وذاتيتهم الداخلية ، أو بعبارة أخرى يتم بناؤه داخل الوعى أو داخل الذات وتحقق المعانى المشتركة من خلال اللغة والرموز وحدة هذا الواقع . وبناء عليه تصبح مهمة علم الاجتماع (المعرفى) تحليل التركيب الاجتماعى للواقع(٢٥) .

ويطلق على مجموعة المعانى الداخلية التى يكونها الأفراد — وهى وسيلتهم لاعادة تركيب الواقع فى ذواتهم — يطلق عليها تعريفات الواقع . وهى التى تمكن الأفراد من أن يخبروا مواقف الحياة ويألفوها كمواقف حقيقية . وتنقسم تعريفات الواقع الى نوعين .

١ — معرفية تشير الى نوعية الأشياء القائمة .

٢ — معيارية تشير الى ما يجب أن تكون عليه هذه الأشياء .

ويختلف الأفراد فيما بينهم فى درجة وضوح هذه التعريفات . ويترتب على ذلك أن يظهر قدر من الاختلاف بين سلوك الأفراد داخل المجتمع الواحد ، كما تظهر الفروق بين المجتمعات فى ضروب السلوك الشائعة التى تعتبر انعكاسا لما هو موجود فى داخليتهم من تعريفات للواقع ، أو بمعنى آخر ، من صياغة للواقع . وتمثل تعريفات الواقع هذه ، ضربا من ضروب المعرفة الاجتماعية(٢٦) . وهى شىء متاح لكل أعضاء الواقع الاجتماعى

---

(٢٥) P. Berger and T. Luckmann, The Social Construction op. cit., p. 15

(٢٦) يؤكد بيرجر وزميله هنا أن الفرق بين معرفة الفرد العادى ومعرفة العالم هو فرق فى الدرجة . فمعرفة العالم ما هو الا رؤية واضحة ومنظمة للمعرفة الذاتية للافراد العاديين ، وتلك قضية منهجية رئيسية فى الاتجاه الفينومينولوجى .

الذى تتم صياغته او بناؤه بطريقة ذاتيـــة . فالفرد يعيش فى عالم الحيـــاة اليومية مسلحا بأشكال معينة من المعرفة . وهو على وعى بأن الآخرين يشـــاركونه ــ على الأقل ــ جزءا من هذه المعرفة وهم يعرفون ذلك . ومن ثم فان تفاعل الفرد فى الحياة اليومية يقوم على مشاركته للأفراد الآخرين أعضاء الجماعة فى نصيب مشترك من المعرفة الاجتماعية (٢٧) .

ولا شك فى أن هذا القدر من المعرفة المشتركة يساهم فى خلق التكامل داخل المجتمع . وفيما يتعلق بقضية التكامل أو النظام العام ، يتحـــدث بيرجر ولكمان عن ثلاث عمليات رئيسية تخلق هذا النظام ، أو بمعنى آخر تجعل الأفراد يشتركون فى مجتمع منظم ، وهذه العمليات هى(٢٨) :

١ ــ التشـــكل النظـــامى Institutionalization ويظهـــر بمقتضـــاها انماط روتينية او معتادة من الأفعال يشترك فيها أنمـــاط مختلفة من الفاعلين .

٢ ــ الشرعية Legitimation بمعنى القدرة على تفسير وتبرير الأشـــكال النظامية من السلوك على مستوى المعنى ويتحقق ذلك من خلال المعرفة الاجتماعية بالواقع؛فطالما كون الأفراد تعريفات عن الواقعوتصوروه فى داخليتهم بطريقة معينة ، فان هذا الواقع سوف يكتسب صفة الشرعية عندهم . وكأن معرفة الواقع هنا دالة على شرعيته . ولا شك أن عـــالم الرموز (اللغة) يلعب دورا هاما فى هذه الشرعية من حيث الوعاء الكلى الذى تنصهر فيه معرفة الواقع .

٣ ــ الاستدماج Internalization ومن خلالهـــا يتم استدماج نظم المجتمع من خلال الأدوار التى يلعبها الفرد . فطالما امتثل الفرد للدور المنوط

---

(٢٧) Ibid., p. 56.

(٢٨) P Hamilton, knowledge and Social Structure, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, pp. 139-141.

به ، فان العالم الخارجى يصبح ذا معنى حقيقى بالنسبة له ، ومن ثم يصبح جزءا منه .

الواضح من هذا العرض السريع لآراء بيرجر ولكمان انه امتداد لفكر الفرد شوتز ، وانه فكر يناوىء — منهجيا على الأقل — الفكر الوضعى . فالمجتمع هنا موجود فى داخلية الأفراد ، وفى معرفتهم بمكوناته ، ووعيهم بها . والمعرفة السوسيولوجية — التى تعد هى نفسها صورة من المعرفة بالواقع — ماهى الا محاولة لفهم الطريقة التى ينظم بها الأفراد عالمهم ، ودرجة وعيهم ومعرفتهم بهذا الواقع .

واذا كانت آراء بيرجر ولكمان هى بداية الاحياء الفينومينولوجى فى الستينيات ، فان هذا الاحياء قد وجد ارضا خصبة لينمو فيها بسبب التحولات البنائية والفكرية التى زعزعت الأساس الذى يقوم عليه علم الاجتماع فى صورته المحافظة . وبعد ظهور الأثنوميثودولوجيا — التى سوف نتحدث عنها فى الفقرة القادمة — خير تعبير على هذا . وما يهمنا الآن هو أن نستعرض بعض الآراء الأخرى وثيقة الصلة بعمل بيتر بيرجر وتوماس لكمان .

نشر ستانفورد ليمان Lyman ومارفن سكوت Scott فى عامى ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، مجموعة من المقالات ، أعادا نشرها فى عام ١٩٧٠ فى كتاب بعنوان: سوسيولوجيا العبث(٢٩) The Socioloogy of Absurd ورغم أن سوسيولوجيا العبث تتخذ نفس المسار الذى سارت فيه ، الاتجاهات الاخرى ، الا أن الباحثين قد استشعروا ضرورة صياغة اسم جديد يكون أكثر تعبيرا عن الروح الجديدة فى دنيا التنظير السوسيولوجى . ويقرر الباحثان هذه الحقيقة فى بداية كتابهما حيث يذهبان الى ضرورة صياغة اسم جديد يعبر عن الاتجاه الجديد فى علم الاجتماع حيث أن الأسماء التى تمت صياغتها

---

(٢٩) S. Lyman and M. Scott, A Sociology of the Absurd, Appleton-Century-Crofts, New York, Copyright, 1970, p. 1.

حتى الآن : الأثنوميثودولوجى ، والتفاعلية الرمزية ، ونظرية التصنيف الفئوى Labeling Theory لاتعبر عن المنظور الراديكالى الذى يتخذ موقفا نقديا من الاتجاهات التقليدية . وقدم البـــاحثان مصطلح « سوسيولوجيا العبث » . ليعبر عن هذا المنظور الراديكالى . وتتخذ سوسيولوجيا العبث نفس الاتجاه العام للبدائل النظرية ، وأعنى اتخاذ موقف نقدى من الاتجاه الوضـــعى وامتداداته المعـــاصرة ، والرجوع الى التيـــارات الفلســـفية الوجودية والفينومينولوجية وادب العبث كما يتمثل فى اعمـــال البير كامى وبيكيت . ولقـــد عبر الباحثان عن هـــذه الحقيقة اينما فى بداية كتابهمـــا حيث ذهبا الى أن سوسيولوجيا العبث تستقى جذورهـــا الفلسفية من الوجودية وفلسفة الظواهر فى صورتها الفلسفية كما تتمثل فى اعمـــال ادموند هوسرل وفى صورتها الاجتماعية كما تتمثل فى اعمال الفرد شوتز . فمن الوجودية استمدت سوسيولوجيا العبث فكرة الحرية ، وفكرة العلاقة بين الواقع الخارجى وبين الانسان الذى يفكر ، ويشعر ، ويفهم من خلال خبرته الذاتية ، وبمعنى آخر تأثرت سوسيولوجيـــا العبث بالوجوديه عندما جعلت من « الانسان » بؤرة اهتمام رئيسية لها . ومن فلسفة الظواهر استمدت سوسيولوجيا العبث اهتمامها ببعض جوانب النشاط الانسانى ، مثل القصـــدية Intentionality ، والـــوعى ، والمعنى الـــذاتى . ومن ادب العبث اتخذت سوسيولوجيا العبث اسمها ، وهو اسم يعبر عن الموجـــة النقدية الجديدة التى تذهب الى أن العالم الذى نعيش فيه هو عالم بغير معنى . فليست هناك معان حقيقيـــة للســـلوك يجب أن يسعى الفـــكر السوسيولوجى الى اكتشافها ، بل ان السلوك وانساق المعتقدات المرتبطة به قائم على ضرب من ضروب العشوائية ، وعلى الانسان أن يستخلص لســـلوكه معنى او مجموعة من المعـــانى داخل هذا العـــالم اللامعقـــول meaningless (٣٠) .

---

(٣٠) Ibid., pp. 1-2

وتقوم سوسيولوجيا العبث على مجموعة من القضايا يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ــ يتكون الفعل الاجتماعى من خلال سعى الأفراد القادرين على توجيه النشاط الذى يضطلعون به ، والقادرين على اختيار البدائل ، لتحقيق كل أهدافهم . وتوجيه النشاط يعنى أن الأفراد قادرون على تقديم تفسير لأفعالهم فى شكل تصورات أو أفكار تضفى على افعـــالهم معنى معينا (٣١) .

٢ ــ يترتب عـــلى ذلك ضرورة أن يكون الفعـــل الانســـــانى طوعيـــا Volunteristic وبدون عنصر الطوعية يتحول النشـــاط الانسانى الى « مجرد سلوك » فالانسان هو الذى يشكل الواقع الاجتماعى ــ كما يتشكل من خلاله ــ فى كل موقف من المواقف التى تكون هذا الواقع(٣٢) .

٣ ــ اذا ما نظرنا الى الحياة على أنها تتكون من مجموعة من المواقف التى يسعى الأفراد داخلها الى تحقيق أهداف هم على وعى بها ، يصبح **الصراع** هو البناء الأساسى للفعل الانسانى . ويظهر الصراع فى كل مجال من مجالات الحيـــاة حتى لو كانت الأهداف التى يســـعى الأفراد الى تحقيقها متشـــابهة لأن كل فرد سوف يحـــاول أن يرتفع بمصالحه الى الحد الأقصى(٣٣) .

٤ ــ واذا ما تصورنا الفعل الانسانى من خلال الصراع يترتب على ذلك استنتاجان : يتصل الأول بنموذج التفاعل الذى يصلح لتفسير العالم الاجتماعى ، ويتصل الثانى بالنموذج الاسترشادى للانسان الذى يمكن أن يكون مثمرا فى تحليل التفاعل .

(أ) فيما يختص بنموذج التفاعل فان نموذج المبـــاراة Game Model

---

(٣١) Ibid., p. 3

(٣٢) Ibid., p. 4

(٣٣) Ibid., p. 5

هو أصلح النماذج لتحليل التفاعل خاصة اذا جاء تصورنا له من خلال تصور الانسان على أنه فاعل طوعى ، يسعى الى تحقيق اهدافه سعيا قصديا . فعندما ينخرط هذا الانسان فى علاقة تفاعل فسوف يستخدم استراتيجيات وأساليب لتحقيق الهدف الذى يقصده ، ويفرض عليه ذلك أن يصنف الآخرين فى ضوء اهدافه ووسائله : فهم اما اعداء أو متحالفون أو محايدون . وتقوم نظرية المباراة على فكرة « التجمع المقصود » Focused Gathering التى طورها جوفمان والتى تقرر أن الموقف الاجتماعى يتكون من فردين أو أكثر يسلم كل منهم بحقوق الآخر فى الادراك والاستجابات الاتصالية والمعرفية . فالتفاعل الاجتماعى يشبه المباراة ، ولكنه يكون بين شخصين أو جماعتين (بما فيها الأمم ، أو جماعات صفوة القوة داخل امة معينة) يعى كل منهما بالآخر ، ويضعه فى بؤرة اهتمامه ، ويكون فى وضع يسمح له بالاتصال به فى ضوء أسلوب صريح . ومباراة الحياة الاجتماعية يجب أن لا تتم وجها لوجه ، بل يمكن أن تتم بين فردين تفصلهما الحدود المكانية ، ولكنهما يتصلان من خلال وسائل الاتصال مثل التليفون ، والتلغراف ، أو البريد(٣٤) .

(ب) أما فيما يختص بنموذج الانسان كما تتصوره سوسيولوجيا العبث فانه نموذج يتصور الانسان فى حالة صراع : صراع مع الآخرين، ومع المجتمع ، ومع الطبيعة ، حتى مع نفسه . ورغم اهمال علماء الاجتماع لنموذج الانسان الذى يصارع الحياة ، فان هذا النموذج يعد اقوى النماذج الاسترشادية heuristic فى دراسة الانسان فى المجتمع . فعندما نسلم بأن الحياة الاجتماعية تكشف عن ضروب مستمرة من الصراع ، فان معنى ذلك أن كل موقف داخل هذه الحياة يضع الأفراد أمام موقف « مشكل »

---

(٣٤) Ibid., pp. 29-30

problematic ومن خلال تصور الانسان فى حالة صراع ، فان عالم الاجتمـــاع يجب أن يبحث عن الميـــكانيزمات التى تنتج ـــ وتعيد انتاج ـــ شكلا مستقرا ومستمرا وموحدا من اشكال التفاعل . ان عالم الاجتماع فى هذه الحالة يسعى الى أن يحل المشكلة التى تحكمت فى تطور العلم الاجتمـــاعى : كيف يصبح المجتمع ممكنا ؟ وسوســـيولوجيا العبث تجيب عن هذا الســـؤال عندما تتصور ان الانسان هو صانع وجوده الخاص ، وهو الذى يخلق المواقف المستقرة المستمرة التغير(٣٥) .

هذه هى القضايا الاساسية التى تقوم عليها سوسيولوجيا العبث . والحقيقة أن القضية الأخيرة تحيلنا مباشرة الى أن نناقش العلاقة بين هذا البديل النظرى وبين النظريات التقليدية التى يقوم على معارضتها ورفضها . من الواضح أن القضايا السابقة تكشف عن بعض مظاهر الاختـــلاف عن النظرية التقليدية ، خاصة فيما يتعلق بتصور الانسان على انه يعيش فى صراع مع الآخرين ومع المجتمع ، وتصوره على انه صانع مصيره الخـــاص يخبر ضربا من ضروب الحرية فى توجيه مناشط حياته ، وفى خلق الظروف المواتية التى تجعله يتغلب على لا معقولية الحياة وعبثها . ولكن نفس القضايا تكشف فى ذات الوقت عن أن المحصلة النهائية لعلاقات التفاعل القائمة على الحرية هى النظام . فالعبث والفوضى يعدان مظهرين أساسيين من مظاهر حياتنا المعاصرة ، ولكن الانسان يستطيع فى النهاية ـــ فى ضـــوء قضـــايا سوسيولوجيا العبث ـــ أن يخلق النظام من قلب الفوضى ، يستطيع ان يحول اللامعقول الى معقول ذى معنى بالنسبة له على الأقل .

ولم ينكر ليمان وسكوت هذه الحقيقة ، فلقد اتضحت مشكلة النظام فى كل الدراسات التى جاءت فى كتابهما السابق . ولكنهما لم يطرحا المشـــكلة

---

(٣٥) Ibid., p. 6

على النطاق الكلى كما طرحها علماء الاجتماع التقليديون ، وانما قدما المشكلة فى شكل السؤال التالى : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ وكانت اجابتهما على السؤال صيغة التفاعل التى تبرزها سوسيولوجيا العبث والتى تتصور الانسان على أنه يلعب مباراة مع الآخرين قد يكسبها اذا كان يمتلك القوة وقد لا يكسبها ، غير ان علاقات التفاعل لا تخلق انفصالا بين أولى القوة والضعفاء ، وانما الانسان نفسه هو الذى يخلق القوة ويعيد خلقها : ففى دوائر الحياة المتعددة يكون خاضعا مرة ، ومالكا للقوة مرة أخرى ، وفى وضع متعادل مرة ثالثة ، فالقوة متغير وجودى فى تفاعل الأفراد(٣٦) . ولقد اتضح تصور ليمان وسكوت لمشكلة النظام من خلال دراسة لهما بعنوان : « الحسابات » Accounts ضمناها كتابهما السابق . وهى فكرة تقوم على لغة الحديث اليومية ، وتشير الى الجمل التى يستخدمها الفاعلون لشرح وتبرير سلوكهم أو سلوك الآخرين (٣٧) . يعنى ذلك أن امكانية قيام المجتمع — بمعنى حل مشكلة النظام — يعتمد على مهارة الأفراد فى تبرير سلوكهم ، وعلى جهودهم المستمرة لتنظيم الحياة وخلق النظام من قلب الفوضى .

ولكن لا يعنى ذلك أنه ليست هناك فروق ، بين سوسيولوجيا العبث والوظيفية . لقد عدد ليمان وسكوت خمسة فروق رئيسية بينهما (٣٨) :

١ — تفترض الوظيفية وجود عالم محدد يسكنه مجموعة من الأفراد تعى بالقوى التى تحدد مصائرها ، ويتصورون انهم بذلك يعيشون فى حرية. أما سوسيولوجيا العبث فانها تفترض وجود متصل وجودى بين الحرية والحتمية ، ومن ثم فان هناك أفرادا اكثر حرية من افراد آخرين ، وهناك افراد يكبحون أكثر مما يتصورون . فسوسيولوجيا العبث تهتم بوعى الفرد ومقاصده ، وبشعوره بالحرية أو القدرية وما يترتب على ذلك من نتائج .

---

(٣٦) Ibid., p. 217

(٣٧) Ibid., pp. 111-113

(٣٨) Ibid., pp. 7-8

٢ ــ تنظر الوظيفية الى أجزاء الواقع على أنها غير عشوائية طالما أنهـا تساهم فى تكامل المجتمع ككل أما سوسيولوجيا العبث فانها تفترض أن عناصر الواقع قائمة على ضرب من العشوائية ، ومن ثم فانه ليست هناك معان محددة ومستقرة ونهائية لهذه العناصر .

٣ ــ تذهب الوظيفية الى ان النظام الاجتماعى العـام يضرب بجذوره فى التساند الوظيفى والتعاون بين أجزاء الواقع . فكل فرد يرتبط بدور معين ويتشرب المعايير خلال عمليات التنشئة الاجتماعية . وتترابط هذه الأدوار بعضها بالبعض الآخر لتكوين اجهزة مترابطة للأدوار Rolesets تكون نظم المجتمع الأسـاسية ، أما سوسيولوجيا العبث فانها تتصور المجتمع على أنه تجمع من الثقافات الفرعية المتصارعة ، التى تحاول فى علاقاتها ببعضها أن تحافظ على قدر من الاستقرار والثبات .

٤ ــ لما كانت الوظيفية تنظر الى الانسان على أنه مخلوق تتحكم فيـه القوى الخارجية ، فانها تميل الى دراسة هذا الانسان من وجهـة نظر المشاهد الخارجى ، فهى لا تولى ادنى اهتمام لمدركات الأفـراد عن انشطتهم فى الحياة . أما سوسيولوجيا العبث فانها تنظر الى الانسان على انه فاعل يصنع افعاله فى ضوء اهدافه وفى ضوء محاولاته المسـتمرة لأن يتيم المـوقف الذى يسـلك داخله . ومن ثم فان سوسيولوجيا العبث تدرس العالم الاجتماعى من وجهة نظر الأفراد الذين يكونون هذا العالم .

٥ ــ تفترض الوظيفية وجود نسق من القيم عـام وشـائع بين اجزاء المجتمع ، أما سوسيولوجيا العبث فانها تشك كثيرا فى شيوع القيم وعموميتها ، ومن ثم تنظر الى القيم والمعايير على انها قائمة على مبدأ الكثرة ، بمعنى أنها متنوعة بتنوع المواقف ، وبتنوع الأفراد ، وبتنوع الفترات الزمنية .

وفى عام ١٩٧١ نشر البريطانى ديك اتكنسون Atkinson كتابا بعنوان: « نظريات الاجمـاع المتزمتـة وبديلهـا الراديكالى » (٣٩) . Orthodox Consensus and Radical Alternative . ويختلف ديك اتكنسون عـن العلماء الذين عرضنا لهم هنا فى انه يعد ناقدا وصاحب نظرية فى ذات الوقت، فلم يكتف بتقديم بديل ، وانما تعرض لنظريات علماء الاجتماع الكلاسيكيين بالنقد والتحليل على أساس اقتناعه بحقيقتين جوهريتين :

الأولى : ان الظروف التى كتب فيها هؤلاء العلماء — وقد حصرهم فى ماركس وماكس فيبر وبارسونز — تختـلف عن الظروف التى نعيشها هذه الأيام . فقد كتب يقول : « لقد كان العلماء الثلاثة (ماركس وماكس فيبر وبارسونز) — وسـوف يظلون — عمالقة فكر . ولكن ظروف الحيـاة التى كتبوا فيها والوقت الذى كتبوا فيه لم تعد قائمة . والحلول التى قدموها لا يمكن أن تصلح للأفراد الذين يعيشون فى عـالم اليوم والأحداث التى تحيط بهم . فالمفاهيم التى كانت يوما ما ثورية أصبحت فى أيامنا هذه محافظة لانها تظللنا وتطمس أفعالنا ومظاهر فهمنا لها (٤٠) .

الثانية : ان التراث الذى قدمه هؤلاء العلماء أصبح يواجه انتقادات حادة . فهناك موجة من الشك يتعرض لها علم الاجتمـاع اليوم ينبع بعضه من علمائه أنفسهم حيث ظهرت العـديد من الكتابات النقدية التى تمثلها آراء كل من الفن جولدنر وروبرت نيسبت ، وحيث ظهرت الكثير من البدائل التى تتخذ موقفا نقديا من علم الاجتماع التقليدى تتمثل فى أعمال

---

(٣٩) D. Atkinson, Orthodox Consensus and Radical Alternative, op. cit.,

(٤٠) Ibid., pp. 147-148

جارفينكل وهابرماس Habermass وشيكوريل Cicourel وغيرهم . وينبع بعضه من طلبة علم الاجتماع أنفسهم . فهم ينجذبون خلف بريق شعبية علم الاجتماع أملا منهم فى ان يساعدهم هذا العلم على فهم فوضى الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وأن يقدم حلولا انسانية للمشكلات الاجتماعيـــة التى يعانى منها المجتمع . غير أنهم ما يلبثون أن يكتشفوا أن علم الاجتماع يتعثر فى تحقيق الهدفين . ولقد عبر عن هذه الشكوك دانيال كوهن بندت(٤١) .

وعبرت عنها الآراء النقدية لمدرسة فرانكفورت . ويعتبر رجل الشارع مصدرا لشك من نوع ثالث يتعرض له علم الاجتماع ، فهو لا يتعرف على نفسه وذاته وسط التعقيدات النظرية التى يقدمها علماء الاجتماع ، ويشعر أنه أقدر من عالم الاجتماع على فهم الناس (٤٢) .

يتضح من ذلك أن اتكنسون قد تأثر تأثرا كبيرا بالظروف البنائية والفكرية المحيطة بعلم الاجتماع المعاصر والتى تسببت فى أن يتعرض لتوترات كثيرة جعلته يمر بأزمة فكرية وبنائية خطيرة . ومن خلال ادراكه لهذه الظروف وقوة تأثيرها على بناء العلم ، ومن خلال ادراكه لطبيعة الظروف المتغيرة فى المجتمعات الحديثة التى لا تتفق مع الرؤية النظرية التى قدمهـــا المنظرون الكلاسيكيون أصحاب نظريات الاجماع المتزمت ، من خلال كل ذلك استشعر ديك أتكنسون ضرورة قيام بديل جديد يخالف الرؤية التقليدية التى تعرض لها بالنقد .

يقوم البديل الذى يطرحه أتكنسون على أساس فينومينولوجى متخذا نفس الاتجاه العام للبدائل النظرية التى نناقشها فى هذا الفصل . فقد حاول

---

(٤١) قدمنا فى الفصل السادس عرضا لآراء دانيال كوهن بندت .

(٤٢) Atkinson, op. cit., pp. 1-3

من خلال عرضه النقدى لآراء الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع أن يستخلص الأساس الذى يمكن أن يقيم عليه بديله . وتوصل من خلال عرضه الى نتيجتين :

١ ــ أن هناك موضوعا أساسيا شغل هؤلاء العلماء وظهر فى كل أعمالهم بحيث يمكن من خلاله أن نستخلص جوانب التقاء بين هذه الأعمال . ينحصر هذا الموضوع فى تصور الانسان على أنه نتاج الواقع : يحدد له مصيره ، وينشئه ، ويحركه كيفما يشاء ككائن يلعب دورا محددا . ومن ثم أصبح البناء الاجتماعى مفهوما أساسيا عند هؤلاء العلماء فهو الذى يحافظ على هذه الصورة للانسان ، وأصبح تصور الانحراف عن هذا البناء سهلا ميسورا . فالتفسير الذى قدمه هؤلاء العلماء يعد تفسيرا معياريا يظهر فيه الانسان خاضعا لقوى المجتمع ومعاييره (٤٣) .

٢ ــ أن هناك موضوعا أساسيا آخر ظهر بصورة متفرقة فى بعض أعمال علماء الاجتماع ، خاصة بعض علماء الاجتماع الأمريقيين من أمثال جوفان جروس Gross ولينج Laing وينحصر هذا الموضوع الأساسى فى تصور الانسان على أنه صانع الواقع ، ومن ثم تصور الفعل الاجتماعى فى ضوء المعنى الذى يعطيه الأفراد لأفعالهم . فالفاعل بذلك يكون موجها نحو التحكم فى مجموعة المواقف التى يواجهها الأفراد ونحو تشكيل فرص الحياة بالنسبة لهم .

ذلك أن هناك موضوعين متعارضين فى علم الاجتماع : أحدهما يفصل بين الذات والموضوع ويتصور الأفراد فى حالة خضوع مستمر للقوى الخارجية ، والثانى لا يفصل بين الذات والموضوع ويتصور الأفراد على أنهم يصنعون المجتمع ويتحكمون فى مصائرهم الخاصة . رفض أتكنسون الموضوع الأول وأقام بديله على أساس الموضوع الثانى . وهذا هو الذى دفعنى الى أن أضعه داخل تيار علم الاجتماع الفينومينولوجى . فالقضية

---

(٤٣) Ibid., pp. 142-143

التى يقيم عليها بديله تعد قضية أساسية فى هذا العلم ، كما اتضح لنا فى غير موضع من العرض السابق . وتتضح تلك الحقيقة بجلاء عندما نستعرض بعض عناصر هذا البديل الراديكالى .

يمكن حصر القضايا الأساسية لهذا البديل فيما يلى :

١ ــ الواقع الاجتماعى واقع ذاتى . فعناصر الواقع لا تكتسب صفة الاجتماعية الا لأننا نحسها ونترجمها فى خبرات ذاتية لنا وللآخرين عن طريق العواطف والكلمات والصور والاشارات . بناء على ذلك لا يمكن أن نفرق بين ما هو اجتماعى وما هو غير اجتماعى لأنه ليس هناك جانب من جوانب الحياة أو المعرفة الانسانية سواء أكانت معرفة علمية أو دينية أو سياسية الا ويختلط بوجودنا الاجتماعى . معنى ذلك اننا اذا نظرنا الى كل شىء من خلال الذات لبدت لنا الأشياء اجتماعية ، وهذا هو السبب الذى جعل ديك أتكنسون يذهب الى ان الواقع الاجتماعى يكتسب صفة الذاتية .

٢ ــ تنحصر عناصر الفعل الاجتماعى فيما يلى :

(أ) المنطق الموقفى .

(ب) الفاعل .

(ج) الغايات ــ القيم .

(د) العوامل السيكولوجية .

(هـ) الأشياء المادية .

(و) الآخرون .

٣ ــ يعد المنطق الموقفى Situational Logic العنصر الأساسى فى الفعل الاجتماعى اذا كنا ننظر الى الواقع نظرة ذاتية . ولا يعنى المنطق الموقفى أننا نفرق بين المواقف المنطقية وغير المنطقية ، ولكن يعنى أن كل موقف ــ مهما كان ــ له منطق اذا نظرنا اليه من وجهة نظر الفاعل نفسه أو مجموعة الفاعلين الداخلين فيه . ان منطق الموقف هو

ادراك الفاعل للموقف وتحديده أو تقييمه له مهما كان نوعية الفعل الذى يقدم عليه الفاعل . وهنا تختفى التمييزات المزعومة بين الأفعال « أو المواقف » الرشيدة وغير الرشيدة ، أو بين الأفعال « المواقف » المنطقية وغير المنطقية .

٤ ــ الواقع يحوى انواعا كثيرة من الناس ، كما انه يحوى عددا لا نهائيا من المواقف . ومن ثم لا يمكن أن نفرض عليه تفسيرا من اعلى ، بل يجب أن ينبع التفسير من داخله ومن خلال تصورات الأفراد انفسهم ، وبذلك نستطيع ان نفسر كيفية تغير الموقف وظهور انســاق جديدة وضروب جديدة من الصراع ، فضلا عن تحليل مواقف عديدة ومتنوعة ، وجماعات عديدة ومتنوعة . وهنا تنقلب مشكلة النظام راسا على عقب وتصبح المشكلة : كيف يشكل الأفراد الظروف التى تحيط بهم ، وكيف يحافظون عليها أو يغيرونها .

٥ ــ يترتب على ذلك الا تكون هناك صورة محددة وابدية للبناء الاجتماعى . فاذا كان الفرد فى هذا التحليل الموقفى فردا يحتوى العالم فى ذاته ، فاننا لا نستطيع ان نربطه باى صورة من صور البناء الاجتمــاعى . ليس معنى ذلك انه لا يوجد بناء على الاطلاق ، ولكن معناه ان البناء يتخذ اى صورة ممكنة حسب تصورات الأفراد واســلوب تحديدهم للعلاقات فيما بينهم . ان المشــكلات السوسيولوجية المعــاصرة لا تدور حول مفهوم العقلانيــة Rationality أو النظــام Order أو الصراع Conflict ولكنها مشكلات تتعلق بمواجهة الآخرين ومن ثم فان الأفراد لا يشكلون انساقا ثابتة بل يشكلون انساقا مرنة ، والبناء الاجتماعى بناء على ذلك يتغير بتغير الزمان والمكان وطبيعــة الأفراد الذين يصنعون المواقف داخله .

وتكشف هذه القضــايا عن تشابه كبير بين أفكار أتكنسون والآراء الفينومينولوجية التى نناقشها هنا . فهو يرفض ذلك الفصــل بين راى

الباحث وآراء الأفراد الذين يكونون هذا الواقع ، والأفراد غير مقيدين بأية روابط او ضوابط ، انهم يتحللون من كل مظاهر الضغط الخارجى حتى وان كانت هذه المظاهر مرتبطة بالبناء الاجتماعى ذاته .

ثالثا ــ الاثنوميثودولوجى « منهجية الجماعة » (٤٤) :

تتكون كلمة الأثنوميثودولوجى من مقطعين : اثنو Ethno بمعنى جماعة او سلالة (قومية او لغوية او عرقية) ، وميثودولوجى وتعنى منهجا . ويكون المقطعان مصطلح Ethnomethodology الذى صاغه هارولد جارفينكل H. Garfinkel عام ١٩٦٧ . كان جار فينكل قد نشر فى الستينات مجموعة من المقالات جمعها فى كتاب أصدره فى عام ١٩٦٧ بعنوان « دراسات فى الأثنوميثودولوجى » (٤٥) . استطاع فيه أن يستفيد من فينومينولوجية الفرد شوتز فى صياغة اتجاه جديد أو بديل جديد لعلم الاجتماع فى امريكا . لقد اخذ جار فينكل من الفرد شوتز اهتمامه بالحياة اليومية أو العالم العادى Common-sense World كما يظهر من خلال تصورات الأفراد واتجاهاتهم الطبيعية . ولايعنى ذلك أن جارفينكل قد سار مع شوتز الى نهاية الخط ، فقد ذهب الى ان شوتز قد مهد الطريق فى هذا المجال عندما وضع اسس علم اجتماع يدرس الحياة اليومية ، غير ان برنامجه النظرى يخلو من اية اشارة امبيريقية ، ولم يستطع حل المشكلات المنهجية الواقعية المتضمنة فى البحث السوسيولوجى الأمبريقى للاتجاه الطبيعى ، ولم يستطع الافادة

---

(٤٤) اقترح سعد الدين ابراهيم مصطلح « المنهجية الشعبية » لترجمة المصطلح الانجليزى Ethnomethodology . ولقد اخذت بهذه الترجمة فى كتابتى لهذه الدراسة لأول مرة فى العام الجامعى ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ . ورايت أن أغير الترجمة الى « منهجية الجماعة » من حيث أن مصطلح « المنهجية الشعبية » يجعل منهج هذه الدراسة أقرب الى دراسة الفولكلور منها الى علم الاجتماع ، أما مصطلح « منهجية الجماعة » فانه أقرب الى طبيعة الدراسة فى علم الاجتماع .

(٤٥) H. Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, Englwood cliffes, Printice-Hall, Inc., 1967.

من علم الاجتماع الفينومينولوجى فى دراسة المسائل الأساسية فى علم الاجتماع التقليدى(٤٦) .

ذهب جار فينكل الى أن مجال اهتمام الأثنوميثودولوجى ينحصر فى دراسة كيفية تنظيم المواقف العملية فى الحياة اليومية بطريقة اجتماعية ، وكيف يستوعبها الأفراد ، ويعرفونها ، ويتعاملون معها كمجموعة متصلة من الأحداث الفعلية والتى يفترض الشخص أن أعضاء الجماعة الآخرين يعرفونها بنفس الطريقة التى يعرفها بها وكيف يسلم بها هؤلاء الآخرون مثلما يسلم بها هو نفسه(٤٧) . فالحياة الاجتماعية — فى نظر جار فينكل — ما هى الا مشروع عملى يشارك فيه كل فرد يعيش فى هذه الحياة . فالأنشطة التى يقوم بها الأفراد فى حياتهم العادية تكون مركبا تنظيميا عمليا A Practical Organizational Accomplishment « فمن خلالها يخلق أعضاء الجماعة مواقف الحياة اليومية ويتحكمون فيها ، وهى ترتبط بمحاولات هؤلاء الأعضاء جعل هذه المواقف قابلة للتبرير Accountable (٤٨). وتظهر مواقف الحياة بصورة تلقائية ، من خلال توقعات تنشأ كليا وجزئيا فى لغة الحياة اليومية التى يشترك فيها كل الأفراد بوصفهم أعضاء فى نظام اجتماعى معين . ويعتقد انصار منهجية الجماعة انه طالما تم تعريف موقف معين ، فان هذا التعريف يستمر فى الوجود ما دام الأفراد يعيشون فى نفس الجماعة . وبنفس الطريقة فأن المعنى الذى يضفيه الافراد على موضوع معين سوف يستمر أيضا فى مناسبات ومواقف مختلفة . وتتشابه المعانى والتعريفات من خلال الاشتراك فى التعبيرات والرموز وتظهر الاختلافات بين الأفراد من خلال اختلافهم فى الخبرات وتواريخ الحياة . ويعنى ذلك أن التفاعل فى المجتمع قائم على مجموعة من القواعد والطقوس التى يسلم بها

---

(٤٦) P. Filmer et al, New Directions in Sociological Theory, London, Macmillan, 1972, p. 140.

(٤٧) Peter Lassman, Phenomenological Perspectives in Sociology, op. cit., p. 131.

(٤٨) H. Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, op. cit, p. 1

الأفراد العـــاديون دون وعى تقريبـــا (٤٩) . وهم فى تسليمهم بهذه القواعد والطقوس يكونون لأنفسهم — كجماعة — منهجا خاصا فى الحياة لا يعون به ، وعلى عالم الاجتماع أن يحترف مواقف التفاعل العادية من اكتشـــاف هذا المنهج ، أو اكتشاف القواعد والطقوس التى تحكم مواقف التفاعل فى الحياة اليومية .

غير أن ذلك لا يعنى أن مواقف الحياة اليومية لا تكشف عن ضرب من ضروب العقلانية ، أو أن الأفراد لا يشتقون لأنفسهم مناهج عقليـــة رشيدة ، توجه سلوكهم . والحقيقة أن فكرة الرشد أو العقلانية تعد فكرة أساسية فى المنهج الأثنوميثودولوجى . فأنشطة الحياة اليومية لها خصائص رشيدة ، فالأفراد يخلقون لأنفسهم أنماطا سلوكية رشيدة أو عقلانية . ولقد حدد جار فينكل أربعة عشر مجالا تظهر فيها هذه الأنماط الرشيدة من السلوك (٥٠) ، وهى : « ١ » عندما يصنف الفرد الأشياء أو الناس أو يقارن بينها ، « ٢ » عندما يزن الأمور أو يقدر خطأ محتملا ، « ٣ » عندما يبحث عن الوسائل التى تحقق أهدافه ، «٤» عندما يحلل البدائل والنتائج المترتبة عليها ، «٥» عندما يستخدم استراتيجية معينة ، «٦» عندما يقدر قيمـــة الوقت ، «٧» عندما يتنبأ بالأحداث ، «٨» عندما يستعمل قواعد اجراء معين ، «٩» عندما يقدم على الاختيار ، «١٠» أو يستعمل معـــايير مقررة للاختيار ، « ١١ » عندما يطابق بين الغايات والوسائل من خلال معايير مقررة أيضا «١٢» عندما يسعى الى الوضوح والتمييز بين الأشياء كى لا يقع فى خطأ ، «١٣» عندما يسعى الى الوضوح والتمييز كهدف فى حد ذاته ، «١٤» عندما يحاول أن يوفق (أو يطابق) بين تحديده للموقف والمعرفة العامية .

---

(٤٩) N.K. Denzin, «Symbolic Interactionism and Ethnomethodology,» in : J. Douglas (eds.) Understanding Everyday Life, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, pp. 270-271

(٥٠) Ibid., pp. 263-268.

ويتضح من خلال هذا التصور الفرق بين المنهج الأثنوميثودولوجى والمنهج الوضعى التجريبى . فالمنهج الأثنوميثودولوجى يسعى الى فهم الأفراد من الداخل ، من خلال تصورات هؤلاء الأفراد العقلانية التى يكونونها لخلال علاقات التفاعل مع الآخرين ، ومن خلال المعانى الذاتية التى يضفيها هؤلاء الأفراد على افعالهم . فالأفراد لا يمثلون « حقيقة واقعية » تخضع للدراسة كظاهرة حسبما يقرر انصار الاتجاه الوضعى ، ولكنهم كائنات عقلانية لها افكارها وتصوراتها الخاصة التى تختلف باختلاف الثقافة والاطار الاجتماعى السائد ، وأى معرفة سوسيولوجية لا يكون لها اى جدوى اذا لم تبن على أساس تصورات الأفراد فى حياتهم اليومية . والنظرية التى يتوصل اليها الباحث لا تعدو الا أن تكون تمحيصا وتهذيبا لما يفتعل فى عقول الأفراد من نظريات . ولقد أطلق جار فينكل على الفرد العادى المنظر العملى Practical theoriist تمييزا له عن المنظر العلمى Scientific theorist واذا كان المنظر العملى له انماطه الرشيدة فى التفكير ، فان المنظر العلمى له انماطه الخاصة به وهى الأربعة الانماط الأخيرة من الاربعة عشر نمطا التى ذكرناها فيما سبق . ويختلف المنظر العلمى عن المنظر العملى فى خمسة اشياء (٥١) .

(أ) يقف المنظر العلمى موقفا محايدا تجاه موضوعات العالم كما تبدو له ، بينما يبحث المنظر الواقعى عن مدى صدق هذه الموضوعات .

(ب) لا يهتم المنظر العلمى بما اذا كانت افكاره ملائمة للسلوك فى العالم الواقعى ، بينما لا يهتم المنظر العملى بالأفكار الا فى ضوء ملاءمتها للسلوك .

(ج) قد لا يبالى المنظر العلمى باعتبارات الوقت فى الثقافة او بأى وحدات أخرى مقننة من الناحية الاجتماعية ، أما المنظر الواقعى

---

(٥١) Ibid., p. 272.

فانه يقيم تفسيراته فى ضوء هذه الوحدات ، ويستخدمها ليطابق بين فعل فرد وآخر .

(د) يفترض المنظر العلمى أن اتصالاته يمكن أن تفهم من خلال عالم أو منظر آخر ، أما المنظر الواقعى فانه يؤكد على ضرورة أن تتوافق اتصالاته مع ما يتوقعه أى فرد سوى فى المحيط الثقافى الذى يعيش فيه .

(هـ) يعرف المنظر العلمى أن وصفه للعالم ليس له أى معنى اذا لم يكن وصفا عاما ، أما المنظر الواقعى فانه يفترض أن فهمه الخاص لأفعاله لا يتفق اتفاقا كليا مع فهم الآخرين لهذه الأفعال وانه يجب أن يكون واعيا بآثار هذا الاختلاف .

ومن تلك العلاقة بين المنظر الواقعى يتضح أن الاختلاف بينهما كامن فى اختلاف الاهتمامات لا فى المنهج . فالمنظر العلمى يهتم بوصف العالم اليومى وتحليله ، بينما يهتم المنظر الواقعى باقامة علاقات تفاعلية بينه وبين الآخرين ، ولكن كليهما يستخدم اسلوبا منهجيا واحدا أطلق عليه جار فينكل « المنهج التوثيقى » documentary method وهو منهج يستخدمه الأفراد فى تفسير سلوكهم تماما كما يستخدمه الباحث فى فهم هذا السلوك . ويقوم المنهج التوثيقى على مجموعة من المشاهدات المنفصلة يمكن ان تعتبر مؤشرات indicators على نمط سلوكى معين . فالنمط السلوكى يشتق من السياق الكلى للمشاهدات ومن معرفة المعانى التى يلصقها الأفراد بأفعالهم. ويستخدم الباحث — والفرد العادى ايضا — سواء اعتمد على الاستبار أو التسجيل أو التحليل أو اى أداة أخرى ، يستخدم هذا المنهج فى تفسير استجابات الأفراد أو فى تجميع معلومات منفصلة ليتوصل الى تفسير متسق للموقف(٥٢) . ولقد استخدم جار فينكل هذا المنهج فى تفسير الكثير من

---

(٥٢) Ibid., Chapter Three.

المواقف التى ضمنها فصول كتابه من الفصل الرابع حتى الفصل السابع(٥٣) .

ومن خلال المنهج التوثيقى يستطيع الباحث أن ينفذ الى مواقف الحياة اليومية لكى يكتشف مناهج الجماعة فى الحياة من حياتها اليومية ، والباحث الذى يستخدم المنهج التوثيقى يسجل البيانات أمام الناس وبالتفصيل وبطريقة طبيعية وملحوظة . ومن ثم فان الموقف الذى يسجل منه يعتبر موقفا تفاعليا لا يتصنع فيه الباحث ولا المبحوث سلوكه .

غير أن الأساليب والمواقف وما يحكمها من طقوس وقواد لايعى بها الأفراد ، يمكن دراستها من خلال منهج شبه تجريبى Quasi Experimental يخلقه الباحث داخل الجماعة التى يدرسها . ويتم ذلك بأن يحاول الباحث أن يكسر القواعد التى تحكم سلوك الجماعة ثم يسجل رد فعل الجماعة تجاه هذا الكسر للقواعد ، ومن ثم يستطيع أن يكتشفها بسهولة . فعندما يستهجن سلوك الباحث — فى موقفمعين يكسر قواعده ، أو يستجاب له بالدهشة والاستغراب — فان معنى ذلك ان القاعدة التى كسرها هى قاعدة سلوكية تحكم سلوك الأفراد دون ان يعوا بها . وكان جار فينكل يطلب من طلابه أن يخلقوا مثل هذه المواقف شبه التجريبية فى الواقع ، ثم يسجلون ملاحظتهم عن استجابات الآخرين تجاه سلوكهم المتعمد . ففى أحد هذه المواقف كان على كل طالب ان يصر — اثناء محادثة عادية مع أحد معارفه — على ان يشرح الطرف الآخر فى المحادثة كل شىء بالتفصيل ويراجعه فيما يقول دائما ، ثم يسجل رد فعل هذا الطرف الآخر تجاه سلوكه (سلوك الطالب) المتعمد . وفى تجربة أخرى طلب جار فينكل من طلابه ان يتصرفوا

---

(٥٣) قدم جار فينكل فى الفصل الرابع تحليلا لقواعد صنع القرار التى يستخدمها المحلفون فى مداولاتهم ، وفى الفصل الخامس قدم تحليلا لرؤية شاب فى سن الثانية عشرة يود أن يكتسب صفات الجنس الآخر ، وفى الفصل السادس قدم تحليلا لوثائق بعض العيادات النفسية ، وفى الفصل السابع قدم عرضا لدراسات حول عملية اختيار المرضى فى العيادات الخارجية .

فى منازلهم على أنهم غرباء فيظهروا الأدب الشديد ، ويرفضوا الدخول فى علاقات شخصية ، ثم يسجلوا رد فعل أعضاء الأسرة تجاه هذا السلوك المتعمد وفى موقف تجريبى آخر ، طلب جار فينكل من طلابه أن يقربوا وجوههم — أثناء محادثة ما — من الشخص الذى يتحدثون معه الى درجة تكاد تتلامس فيها أنوفهم ، ثم يسجلون رد فعل الشخص الذى يتحدثون معه تجاه هذا السلوك . وفى موقف آخر ، طلب منهم أن يستغفلوا أصحابهم ، ويكسروا قواعد اللعب فى لعبة معينة ثم يسجلوا رد الفعل تجاه هذا السلوك(٥٤) . ومن خلال هذه المواقف شبه التجريبية التى يتصرف فيها الباحث بطريقة تختلف عن القواعد المتفق عليها ، فانه يستطيع أن يكتشف هذه القواعد نفسها لانه لا يعى بها مثله مثل الأفراد الذين يدرسهم .

واذا كان جار فينكل وزملاؤه قد اكدوا على المنهج التوثيقى والمنهج شبه التجريبى ، فانهم رفضوا الأساليب الكمية — كاستخدام الاستبيان والاختبارات رفضا شديدا . ذلك أنها تفصل بين الباحث وموضوع دراسته ، وتتضمن معرفة قبلية بالواقع يفرضها الباحث فرضا على اداة بحثه . كما تحفظوا على استخدام أسلوب المقابلة المفتوحة . فمهما خلق الباحث من علاقة الفة بينه وبين المبحوث ، فان موقف التفاعل أثناء المقابلة — بما يتضمنه من اختلاف فى الأسلوب اللغوى والحركات الجسمية وتعبيرات الوجه بالنسبة للباحث والمبحوث — يقيد هذه العلاقة ، ويجعل كلا منهما يسعى لأن يكون عن الآخر قدرا من المعلومات تتعلق بطبيعة الآخر ، وآرائه السياسية وخلفيته الاجتماعية . ويؤدى موقف التفاعل هذا ، بين الباحث والمبحوث ، الى أن يحاول كل منهما أن يسلك فى ضوء الفكرة التى كونها ، فيحاول الباحث تجميع أكبر قدر من المعلومات ويحاول المبحوث ان يبالغ فى محاولة افادة الباحث أو يحاول انهاء المقابلة باسرع ما يمكن . وبناء عليه ، فان المادة المجموعة تكون من انتاج الباحث والمبحوث على حد سواء(٥٥) .

---

(٥٤) Ibid., Chapter two.

(٥٥) N. Denzin, op. cit., pp. 274-75

ويتنافى ذلك مع ما تسعى الأثنومينودولوجى الى أن تحققه ، وأعنى معرفة افكار وقواعد سلوك المبحوث دون أى تدخل من طرف الباحث . وهـذا ما يتم تحقيقه من خلال المنهج التوثيقى وشبه التجريبى .

رابعا ــ احياء التفاعلية الرمزية :

اتضح من عرض الأصول الفكرية للبدائل النظرية التى نعرضها فى هذا الفصل ، أنه توجد فى هذه الأصول صورة أولية مبكرة لما يطلق عليه التفـاعلية الرمزيـة Symbolic Interactionism ظهرت فى أعمال كولى الذى اهتم اهتماما خاصا بالذات ، وفى أعمال جورج هربرت ميد الذى ربط فكرة الذات الفاعلة بعالم الرموز واضعا الأساس النظرى للتفاعلية الرمزية. وكما اتجه بعض الباحثين الى التراث الفينومينولوجى ، اتجه بعضهم الآخر الى اعمال كولى وهربرت ميد بحيث تطورت هذه الأعمال فيما يعرف الآن بالتفاعلية الرمزية(٥٦) .

يذهب أنصـار التفاعلية الرمزيـة الى أن الـذات هى الموضـوع الأساسى أو الوحدة الجوهرية للتفاعل ، فالذات تحمل فى طياتها كمـا هائلا من التفسيرات المختلفة والمعانى المختلفة للموضوعات . فالموضوعات الخارجية ــ كما يذهب بولمر ــ لا تحمل معان داخلية خاصة بها . انهـا ليست كيانات مستقلة بذاتها لا خصائص داخلية ، وانما هى توجد فقط

---

(٥٦) تمثل ذلك فى اعمال بلومر Blumer وجوفمان Goffman ،ويجب ان ننوه هنا الى أن التفـاعلية الرمزية قد تأثرت ايضـا بالتراث الفلسفى الفينومينولوجى فالافتراض الأساسى الكامن خلف الاتجاه الفينومينولوجى فى علم الاجتماع وكذلك التفاعلية الرمزية هو فهم السلوك الاجتماعى من خلال المستويات المعرفية لهذا السلوك ، بمعنى دراسة الخصائص البنائية للمحتوى المعرفى ، او دراسة العلاقات الاجتماعية كما تتبدى فى وعى الفرد وادراكه وهو افتراض فينومينولوجى بالضرورة . وهذا هو السبب فى أن الكثير من الكتاب يعتبرون التفاعلية الرمزية صورة من صور الفينومينولوجيا .

فى المعانى التى يضفيها الأفراد عليها . والموضوع هنا هو اى شىء يقع خارج نطاق الذات ويتجه نحوه التفاعل سواء اكان فيزيقيا « كالكرسى » او تخيليا « كالشبح » ، او طبيعيا « كالسحاب » او مجردا « كمفهوم الحرية » او متصلا بشخص معين (٥٧) . وهذه المعانى التى يضفيها الأفراد على الموضوعات تظهر بصورة تلقائية اثناء عملية التفاعل . ولا شك ان الرموز (كما تتمثل فى اللغة) تلعب دورا اساسيا فى خلق واضفاء معان معينة على الموضوعات الخارجية ، انها وسيلة الذات فى التعرف على العالم .

واثناء حياة الفرد يتم تطبيع الذات على مجموعة الرموز والمعانى السائدة فى المجتمع . ويتحدث التفاعليون الرمزيون هنا عن مفهوم ايواء الذات Self - Lodging والتى يتم من خلالها ترجمة الذات او جزء منها الى ذوات وذكريات ومخيلات الآخرين . ويعنى ذلك ان عملية ايواء الذات تتيح للفرد ان يخلق ضربا من التوافق بين ذاته ، وذوات الآخرين ، او بين ذاته ومجموعة المعانى التى يتفق عليها كل الأفراد داخل المجتمع . وبذلك يتجاوز الفرد رغباته وعواطفه ويوحد بين ذاته وذوات الآخرين بحيث لا يتعارض سلوكه مع سلوكهم . وفى هذه الحالة فان مجموعة من العادات والتقاليد لابد أن تنشأ لتحكم سلوك الأفراد طالما خضع كل منهم لعملية ايواء الذات هذه ويصبح السلوك اجتماعيا اكبر واشمل من السلوك القائم على الدوافع الفردية(٥٨) .

---

(٥٧) Herbert Blumer, op. cit., p. 238.

(٥٨) Dinzen, op. cit., pp. 262-3.

ومن المؤشرات التى تعكس محاولة ايواء الذات ارتداء ملابس معينة ، واتخاذ أسماء معينة ، واتباع اسلوب معين فى الحديث ، ودرجة الاندماج فى مناقشة معينة فى ضوء الوقت او موضوع المناقشة . ويحكم الفرد على التفاعل اذا كان مرضيا او غير مرض من خلال درجة نجاحه فى ايواء ذاته لدى الآخرين . انظر المرجع السابق .

والواضح أن عملية ايواء الذات تعكس العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فالفرد اما أن يخضع ذاته للمجتمع ، واما أن يفرض ذاته على المجتمع . غير أن تراث التفاعلية الرمزية — على ما يبدو — يركز على الجانب الأول .

هنا يتحول السلوك الفردى الى سلوك جماعى أو الى أفعال مشتركة Joint actions . ويستخدم بلومر هذا المصطلح الأخير بدلا من مصطلح هربرت ميد « السلوك الاجتماعى » Social act . وتعنى الأفعال ذات الصيغة الجمعية للفعل التى تتكون من تجميع خطوط السلوك الفردية جنبا الى جنب . ومن نماذج الأفعال المشتركة : المعاملات التجارية ، والولائم العائلية ، وطقوس الزواج ، وحملات الدعاية ، والألعاب ، والحروب . والأفعال المشتركة بذلك تتراوح بين التعاون البسيط بين فردين الى أعقد النظم والتنظيمات(٥٩) . ويتضح هنا ان المجتمع ما هو — فى النهاية — الا جماع لأفعال الأفراد التى تأخذ صورتها الجماعية من خلال المعانى الجمعية التى يضفيها الأفراد على الموضوعات المحيطة بهم بما فيها الآخرون انفسهم ، وما تلعبه الرموز من دور فى هذه العملية وسعى الافراد الدائب نحو ايواء ذاتهم داخل المجتمع .

والسؤال الآن : هل تفقد الذات هويتها فى هذا النمط من المجتمع الذى يتصوره أنصار اتجاه التفاعلية الرمزية ؟ الحقق أن المجال هنا مفتوح للسلوك الطوعى الواعى ، برغم أن المحصلة النهائية لعلاقة الفرد بالمجتمع — فى ضوء نظرية التفاعل الرمزى — هى علاقة قهرية من جانب المجتمع . فالتفاعليون الرمزيون يفرقون بين نوعين من السلوك :

١ — السلوك الذى يستخدم الرموز ويخضع لها بطريقة روتينية بحتة قائمة على العادة تقريبا .

٢ — السلوك الواعى الموجه نحو تحقيق هدف معين من خلال وسائل معينة .

ويمثل هذان النوعان من السلوك قطبين لنمطين شائعين من التفاعل تظهر بينهما أشكال اخرى متداخلة ، غير ان التفاعل يتحرك بينهما على اى

---

(٥٩) Blumer, op. cit., p. 239

حال . ويعكس هذان المستويان من السلوك مستويين للذات : فهناك جانب روتينى للذات مرتبط بدرجة تحديد الرموز بشكل جمعى خلال التفاعل الروتينى ، وهناك جانب آخر للذات أكثر ابداعا وأكثر عرضة للتغير طالما أن جوانب بعينها من السلوك يتم توجيهها بوعى(٦٠) . فضلا عن هذا ، فان هذين النوعين من السلوك يعبران عن أن هناك فى أى مجتمع ، اتجاها نحو ثبات العلاقات واستقرارها ، واتجاها آخر نحو تغييرها وتعديلها .

ولكن ما هو الأساس المنهجى الذى تقدمه التفاعلية الرمزية ، الواضح أن فهم المجتمع من خلال تصورات الفاعلين ، والمعانى التى يضفونها على مواقف التفاعل بما فيها من موضوعات ، يتطلب أساسا منهجيا يختلف عن المنهج الوضعى — فى صورته الدوركايمية — الذى ينظر الى الظواهر بوصفها أشياء منفصلة عن ذات الباحث ، وحتى عن الأفراد الذين يكونون عناصرها ، ويقترب المنهج الذى طوره التفاعليون الرمزيون من المنهج الفينومينولوجى والاثنوميثودولوجى من حيث أنه محاولة لكسر الحواجز التى تفصل بين ذات الباحث وموضوع بحثه ، بحيث يتمكن من الغوص فى أعماق الذات لكى يستخلص منها المعانى والتصورات المختلفة ، ولكى يفهم صورة التفاعل الرمزى بشكل أعمق . ويلخص فورمان دنزن القضايا المنهجية للتفاعلية الرمزية فيما يلى(٦١) :

١ — ربط السلوك الضمنى (الكامن) Covert بأنماط السلوك الظاهرة overt . فالباحث يجب أن يبدأ من أنماط السلوك الظاهرة ثم يحاول الكشف عن المعانى التى يضفيها الفاعلون على هذه الأنماط السلوكية .

٢ — يركز الباحث على الذات كموضوع وعملية فى نفس الوقت فيدرس

---

(٦٠) Scott McNall, The Sociological Experience : A Modern Introduction to Sociology, p. 317.

(٦١) N. Densin, op. cit., pp. 266-69.

السلوك من وجهة نظر الأفراد الذين يدرسهم ، موضحا تحول الذات عبر المعانى المختلفة فى المواقف السلوكية المختلفة .

٣ ــ يحاول الباحث بعد ذلك أن يربط الرموز والمعانى التى يستخدمها الأفراد بالدوائر الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الأوسع ، والا ظل التحليل عند مستواه السيكولوجى .

٤ ــ اذا كان السلوك يظهر داخل « مواقف » ، واذا كان المعنى الذى يضفى على هذه المواقف يؤثر على أنماط السلوك اللاحقة ، فان التحليل الموقفى يجب أن يكون عنصرا أساسيا فى الدراسة (تتضمن عناصر الموقف : الفاعلون كموضوعات ، مميزة التفاعل أو مكانه ، المعانى التى تظهر فى الموقف ، والوقت الذى يستغرقه التفاعل) .

٥ ــ اذا كان التفاعل الرمزى يتميز بأنه تفاعل مستمر ومتغير فى نفس الوقت ، فان استراتيجيات البحث يجب أن تعكس كلا الجانبين من التفاعل .

ويتضح من هذه القواعد المنهجية أن التفاعلية الرمزية تلتقى مع الاتجاهات الفينومينولوجية فى محاولتها المنهجية تخطى الحدود الفاصلة بين الباحث وبين الأفراد ، ودراسة المواقف الاجتماعية كما يتصورها هؤلاء الأفراد انفسهم .

والسؤال الآن : الى أى مدى حققت كل هذه الاتجاهات انفصالا راديكاليا عن تيار علم الاجتماع بصورته المفروضة فى القسم الأول من هذه الدراسة ، وما هو الاسهام الحقيقى الذى قدمته ؟ هذا هو موضوع الفقرة القادمة .

خامسا ــ البدائل النظرية بين الاسهام النظرى والمنهجى :

اذا حاولنا أن نوضح العلاقة بين هذه الأطر النظرية وبين نظريات علم الاجتماع الكلاسيكى ، لاتضح لنا ــ على غير ما نتوقع ــ أن هذه الأطر

النظرية لم تذهب بنا بعيدا عن النظريات الكلاسيكية ، وانما تناولت نفس القضايا ، ونفس الهيكل التنظيمى القائم ، ولكن من خلال مفاهيم ومناهج جديدة . لقد كانت الظروف التى ظهر فيها هذا الاحياء للأطر الفنيومينولوجية القديمة — وهى تلك الظروف المتعلقة بظهور الحركة النقدية فى تراث علم الاجتماع — كانت من الشدة بحيث انتابت بعض العلماء نوبة من التفاؤل وبداوا ينظرون الى هذا الاحياء الفينومينولوجى على انه استفادة للمسحة الانسانية فى العلوم الاجتماعية ، وانه سوف يؤدى بعلم الاجتماع الى الانفصال كلية عن التراث الكلاسيكى المرتبط بالنظام والمدافع عنه . ولقد عبر عن ذلك التفاؤل موريس روشRoche عندما ذهب الى أن رجوع علم الاجتماع — الذى يمر فى الوقت الحاضر بمرحلة من اعادة التقييم — الى الأصول الفلسفية سوف يبرز داخله العنصر الانسانى الذى اختفى عندما تحول علم الاجتماع — خاصة فى الولايات المتحدة — الى مهنة منصهرة فى النظام الكلى للمجتمع . فالتطورات الحديثة فى علم الاجتماع — والتى تتمثل فى أعمال جار فينكل وجوفمان على وجه الخصوص — تستعيد المصادر الانسانية التى كبحت وأهملت لوقت طويل فى علم الاجتماع ، بل انها تخرج خارج نطاق الحدود التقليدية فى علم الاجتماع عندما تستقى مفاهيمها من الفينومينولوجيا (٦٢) . كما عبر عن هذا التفاؤل ايضا دون زمرمان Don Zemmerman الذى ذهب الى أن المنهج الأثنوميثودولوجى يكشف عن اختلاف جذرى عن التفكير السوسيولوجى التقليدى . فالباحث يتعامل مع الواقع الذى نعيش فيه ويسلك داخل نفس العالم الاجتماعى الذى يدرسه بطريقة تختلف — من زوايا عديدة — عن طريقة علماء الاجتماع التقليدين . فالمنهج الاثنوميثودولوجى لايهتم بالنظام قدر اهتمامه بتنوع واختلاف علاقات التفاعل باختلاف المواقف واختلاف تصورات الأفراد عن هذه المواقف . واذا قرر أصحاب هذا المنهج أن الفاعلين يشاركون فى مجموعة من التحديدات والتصورات عن علاقات التفاعل ، فليس معنى ذلك ، ان

---

(٦٢) Roche, op. cit., P. IX and P. 316

علاقات التفاعل تخلو من الصراع ، أو انها غير مهددة بالتوقف ، ذلك لان التصورات المنبثقة عن موقف معين قد تختلف باختلاف ديناميات الموقف(٦٢) . غير أن هذا التفاؤل بشأن الكفاءة النظرية لهذه الاتجاهات ، لا يوجد عند كل دارسى النظرية . فاذا كانت هذه الاتجاهات قد حققت قدرا من الانفصال من التيارات الكلاسيكية فى علم الاجتماع عندما اهتمت بالحياة اليومية ، بسلوك الفرد فى مقابل المجتمع ، الا انها قد انتهت الى ما انتهت اليه النظريات الكلاسيكية من تأكيد على عناصر النظام العام ، والاهتمام بالقيم والمعايير كضابط مطلق للسلوك . وبمعنى آخر فان هذه الاتجاهات تهتم — من خلال ارتباطها بمشكلة النظام مثلها مثل الاتجاهات الأخرى — بامكانية قيام نظام اجتماعى عام اكثر من اهتمامها بقدرة الأفراد على تغيير هذا النظام وتحويله . ولقد عبر عن وجهة النظر هذه « الفن جولدنر » عندما ذهب الى ان جار فينكل قد عارض بارسونز عندما أهمل دور الاشباعات المتبادلة فى علاقات التفاعل، وعندما أهمل دور المشاركة فى القيم الأخلاقية بين جماعات الفاعلين . ولكن اهتم — مثله مثل بارسونز — بمتطلبات النظام الاجتماعى العام عندما اهتم بمشاركة الفاعلين فى القواعد والمعرفة التى تجعل التفاعل الاجتماعى المستقر ممكنا بينهم . فالعالم الاجتماعى يكتسب صفة الوحدة — فى نظر جار فينكل — من خلال بناء جمعى من الفهم المتبادل بين الأفراد (٦٤) ، وعبر عنه أيضا نورمان دنزن Denzin (٦٥) ، الذى ذهب الى أن التفاعلية الرمزية التى تمثلها أعمال جوفمان Goffman والأثنوميثودولوجى التى تمثلها كتابات جار فينكل ، يهتمان اساسا بامكانية قيام نظام اجتماعى عام من حيث انهما يركزان على القواعد والمعايير ، والمعانى والتعريفات التى يسلم بها أعضاء اى نظام معيارى ، ويعتبرونها شيئا معطى ، وان كان قد

---

(٦٢) Don Zemmerman and Lawrence Wieder, «Ethnomethodology and The problem of Order», Comment on Denzin, in : J. Douglas, Understanding Everyday Life, Routledge and Kegan Paul, London, 1974, p. 287

(٦٤) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 390.

(٦٥) Denzin, op. cit., pp. 259 — 284

ذهب فى نفس الوقت الى أن الاثنوميثودولوجى قد قدمت اسهاما راديكاليا عندما اهتمت باستخدام النماذج الرشيدة للسلوك الانسانى ، وعندما استخدمت « المنهج التوثيقى » . وعبر عن نفس الرأى جون ركس الذى ذهب الى أن دراسة المعانى التى يسلم بها الأفراد فى لغتهم اليومية تؤدى الى الأساس الحقيقى للنظام الاجتماعى ويعنى هذا أن استخدام اللغة يتضمن قبول الأفراد الذين يستخدمونها لنظام معيارى معين(٦٦) .

يتضح من هذه الآراء أن امكانية هذه البدائل النظرية فى تقديم صورة نظرية تنفصل انفصالا راديكاليا عن التراث الكلاسيكى هى امكانية ضعيفة الى أبعد الحدود حقيقة أن انصار هذه الاتجاهات الجديدة قد بدأوا من موضوعات ومشكلات نظرية مخالفة لتلك التى طرحت فى التراث الكلاسيكى المحافظ (مثال ذلك الاهتمام بلغة الحياة اليومية ، والتصورات الذاتية) غير أن التحليل قد انتهى بهم الى أن يواجهوا نفس المشكلات النظرية الكلاسيكية، وعلى راسها « مشكلة النظام » .. ولقد قدسوا نفس الحل القهرى لهذه المشكلة عندما ربطوا بين التفاعل الموقفى والمعايير والقواعد ، أو حتى الرموز التى تحكم هذا التفاعل(٦٧) .

هذا عن النظرية ، فماذا عن المنهج ؟ يبدو أن الاسهام الحقيقى لكل هذه الاتجاهات هو اسهام منهجى أكثر منه نظرى . فالمناهج التى طورها

---

(٦٦) J. Rex, Sociology and the Demstification of — op cit., p. 27

(٦٧) بل ان جار فينكل قد عبر عن تاثره ببارسونز — ضمن آخرين — هم شوتز وجيرفتش وهوسرل . فقد كتب يقول : « لقد زودتنى أعمالهم بخيوط ارشادية لا تستنفذ نحو عالم الأنشطة اليومية . أما أعمال بارسونز بصفة خاصة ، فانها تدعو للاحترام ، وذلك لعمق منطقها السوسيولوجى الواقعى المتناهى ودقته التى لا تخطىء فى فهم المهام الكلية لمشكلة النظام العام وحلولها » .
انظر :
Garfinkel, Studies in Ethnomethodology, op. cit., p. ix

علماء منهجية الجماعة ، والتفاعلية الرمزية ، تبدو على تناقض شديد مع المناهج الكمية أو حتى بعض صور التحليل الكيفى التى صاحبت النظريات الكلاسيكية وامتداداتها المعاصرة . وتنحصر الجدة المنهجية التى قدمتها هذه الاتجاهات فى عنصرين :

الأول : تصور جديد للعلاقة بين الباحث وموضوع بحثه حيث اعتبر الباحث جزءا من الموضوع يؤثر ويتأثر به والفرق بينهما هو فرق فى مستويات الوعى أو مستويات التحليل العقلانى. ومن ثم فان السلوك العلمى ، أو بمعنى آخر ، الموضوعية ترتبط بمدى الوعى الذاتى للباحث وامتثاله لمعايير حب الاستطلاع والاكتشاف .

الثانى : تطوير بعض الأدوات الخاصة بجمع البيانات كالمنهج التوثيقى والمنهج شبه التجريبى فى الاثنوميثودولوجى ، وتطوير بعض أساليب الملاحظة ، والملاحظة بالمشاركة فى التفاعلية الرمزية.

ويرتبط هذان العنصران بالافتراض المنهجى النظرى الأساسى الكامن خلف كل هذه الاتجاهات ، والذى مؤداه أن ظواهر المجتمع ليس لها وجود خارج نطاق وعى الأفراد أو مداركهم . وفى هذه الحالة ، فان الباحث ما هو الا فرد يعيش فى المجتمع له ما للأفراد من وعى وادراك . وعلى الباحث — اذا كان له أن يدرس هذه الظواهر — أن يتسلح أولا بقدر من الوعى العلمى الذاتى ، ثم يشتق لنفسه من الأدوات ما يمكنه من الغوص فى نفوس الأفراد لاستخلاص ظواهر المجتمع وقوانينه كما يتصورونها . ومن هنا كان التركيز على هذه الأساليب الجديدة فى جمع البيانات .

غير أن هذه الأساليب المنهجية من الممكن أن تكون محل مناقشة من ناحيتين :

الأولى : أن الباحث الذى يكسر اساليب السلوك وقواعده لكى يكتشف هذه الأساليب والقواعد (وانا اقصد هنا المنهج شبه التجريبى فى منهجية الجماعة) لابد وان يكون على معرفة بالسلوك الذى كسر قواعده . بمعنى آخر ، ان هذه القواعد معروفة سلفا لدى الباحث ، وهو فقط يكسر قواعد السلوك من أجل اختبار معرفته بها . وفى هذه الحالة تصبح المعرفة السوسيولوجية من نتاج الباحث ، وليست مستخلصة من المجتمع .

الثانية : اذا كان الباحث عضوا فى المجتمع الذى يدرسه ، وهو جزء لا يتجزأ منه ، فانه يصبح من الصعب عليه فى الكثير من الأحيان ان يدرك الدلالات السوسيولوجية . للكثير من تفاصيل الحياة اليومية . وفى هذه الحالة ، فان مزيدا من الغوص والتعمق فى تفاصيل الحياة اليومية لن يمكنه من رؤية واضحة لما يريد أن يدرسه ، وربما يحقق هذه الرؤية اذا هو استطاع ان ينفصل عن الثقافة والمجتمع اللتين يدرسهما ، وينتمى اليهما ، بحيث يفصل بين ذاته كحامل للثقافة ، وكمشارك فى المجتمع ، وبين الموضوع الذى يدرسه .